

رَحْلَةُ الْحَجَّازِ

بمِ
أبرهيم عبد الفتاح الميازي

الطبعة الأولى

أكتوبر سنة ١٩٣٠ م — جمادى الأولى سنة ١٣٤٩ هـ

الحقوق محفوظة للمؤلف

مطبعة فؤاد بشارة عبد الحق السبأطي رقم ٢٠ ميدان الأوبرا بمصر

رحلة الحجاز

بقلم

ابراهيم عبدالقادر المازني

(طبع في مطبعة فؤاد بعطفة عبد الحق السنياطي رقم ٢٠)
بميدان الأوبرا

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

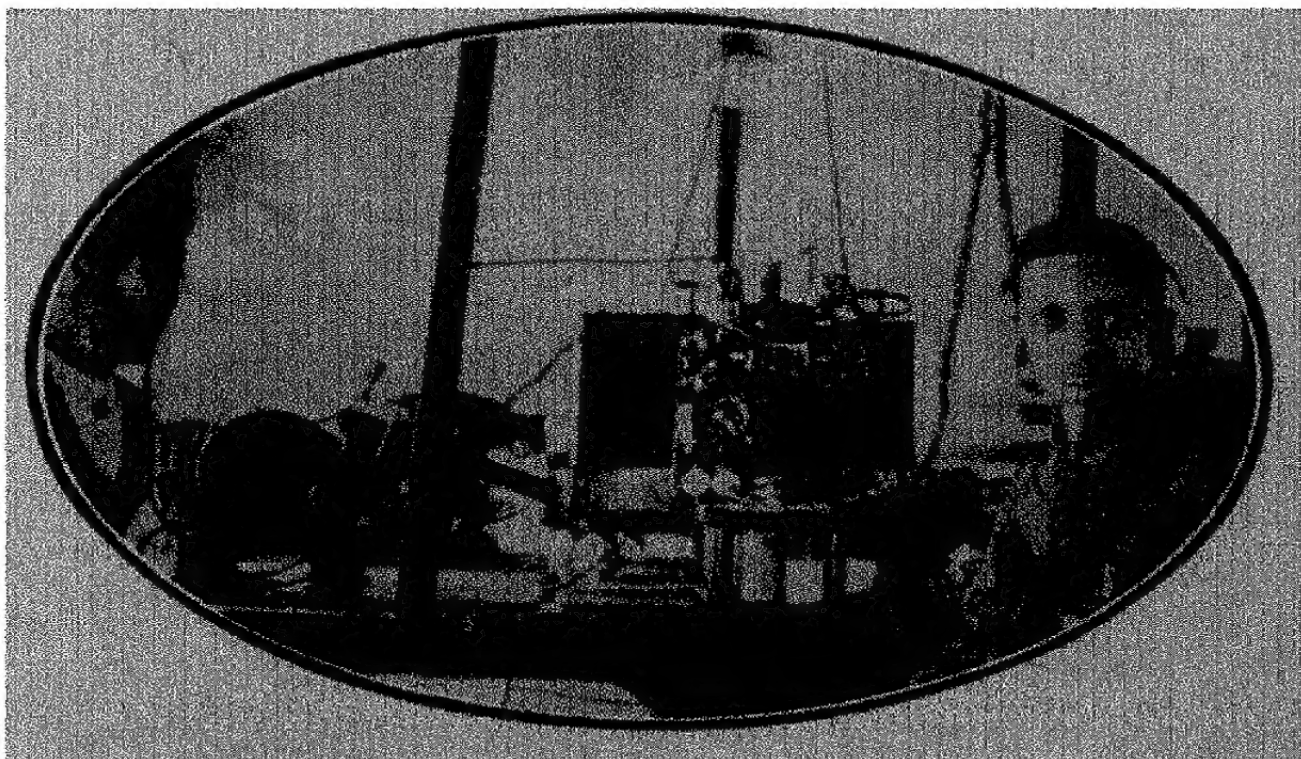


جلالة الملك ابن السعود والأمير سعود ولي عهده ونائبه في نجد
والأمير فيصل نائبه في الحجاز

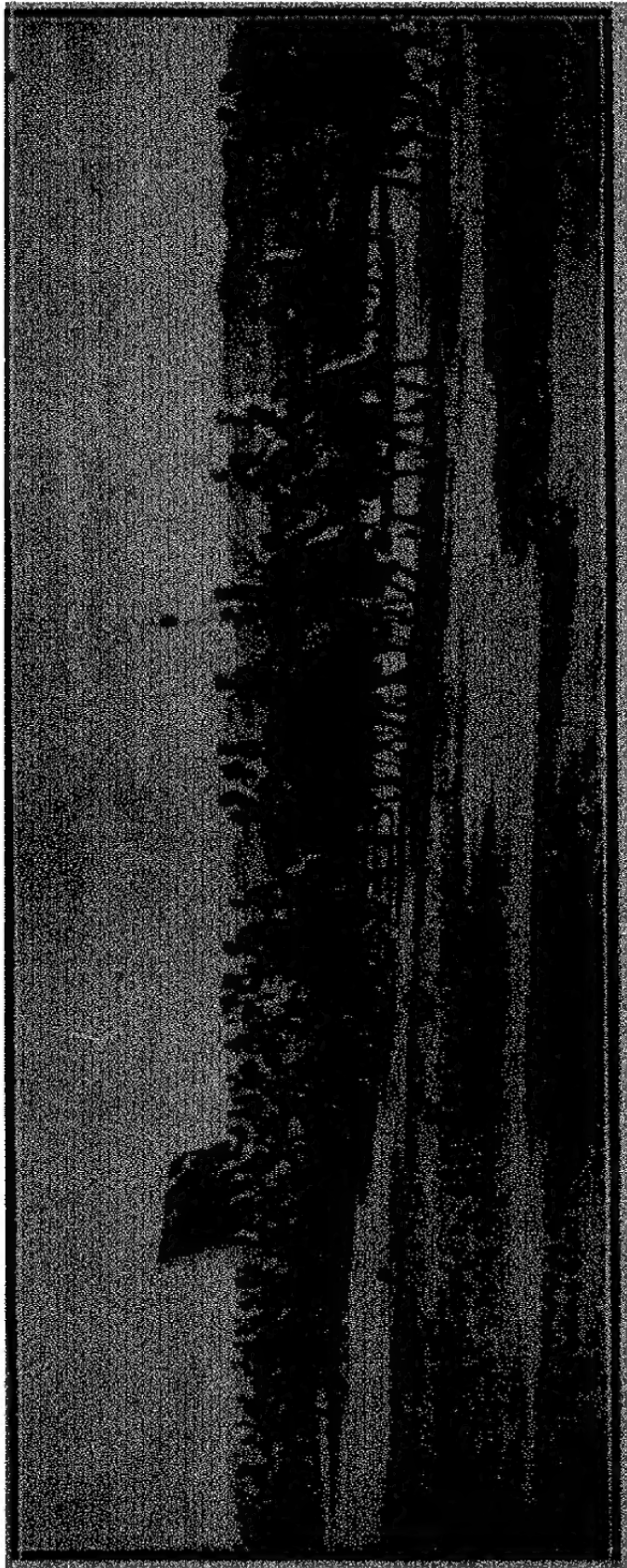
الاهراء

« الى التي تفرح لفرمي ونحزب ، لحزني والتي أسي ، البهرا فتعفو
وأرقتها فتحنل ، والتي لا تكون معي الا راضية عني مباهية بي
داعية لي
الى أسي ... »

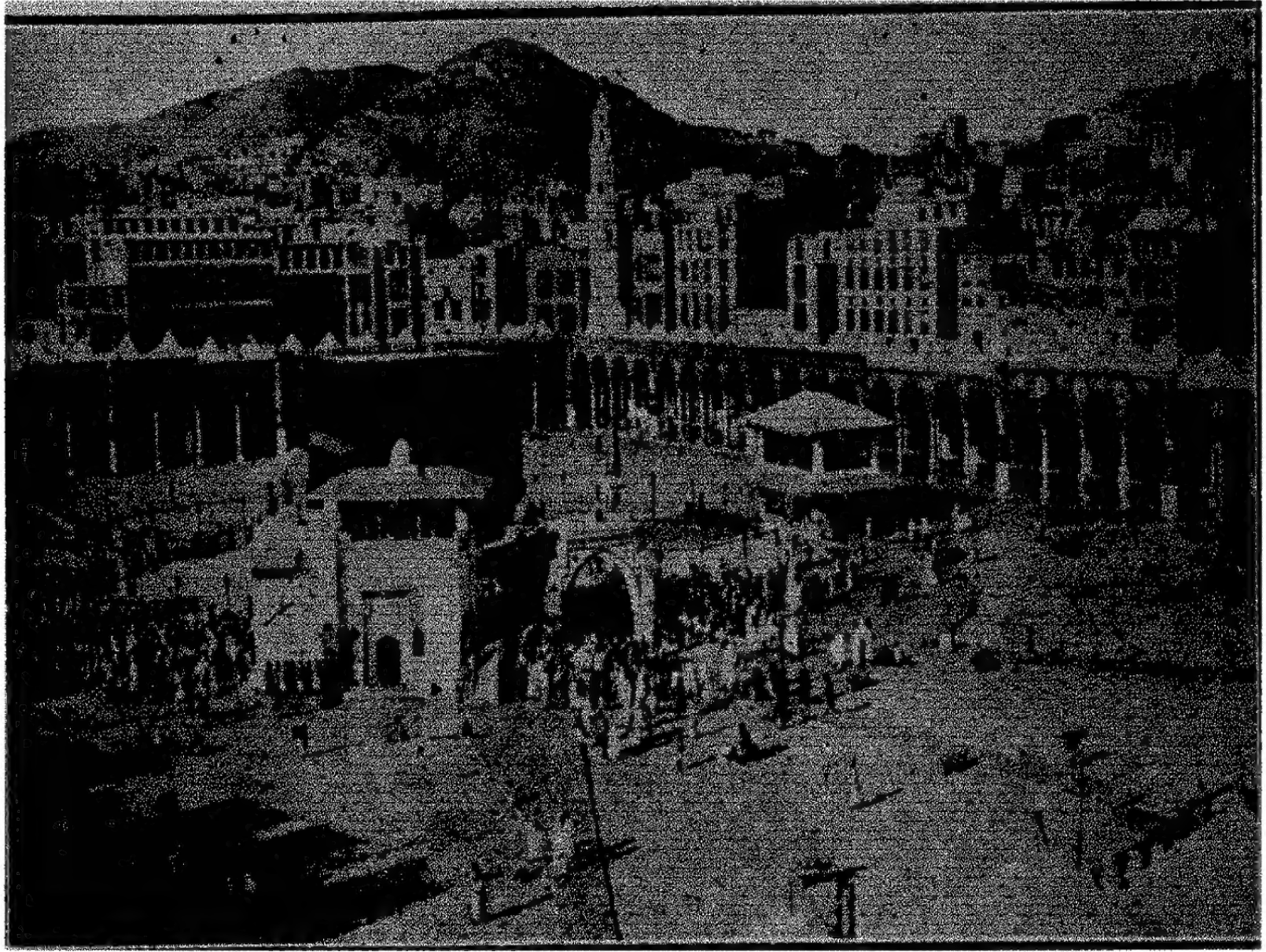
ابراهيم عبد القادر المازني



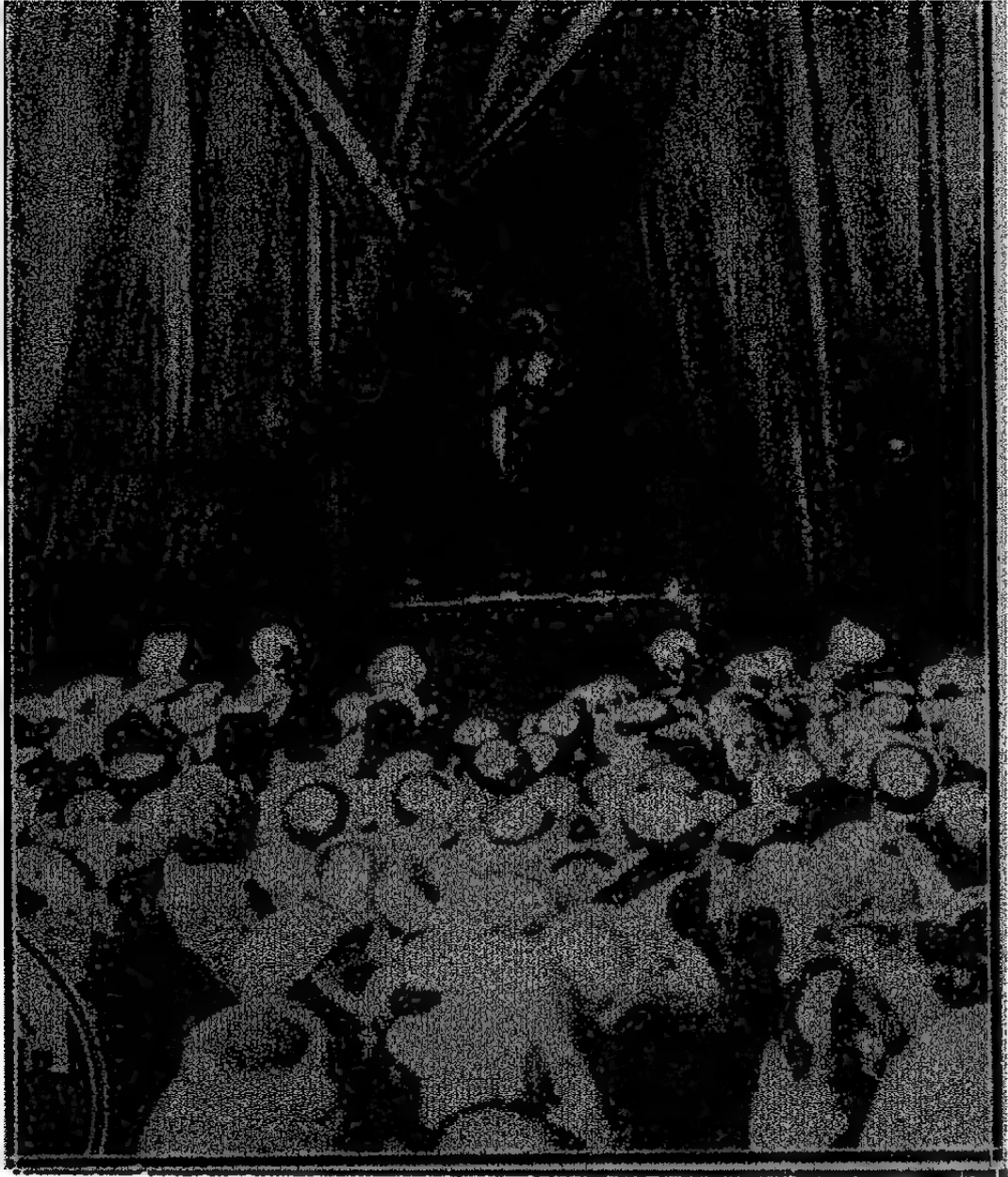
اللاسلكى فى ينبع ويرى فى الصورة عامل الالاسلكى وهو حجازى



عرض الجيش في الكندرة



صورة للحرم الشريف وترى فيها الكعبة ومقام الخليل وبئر زمزم



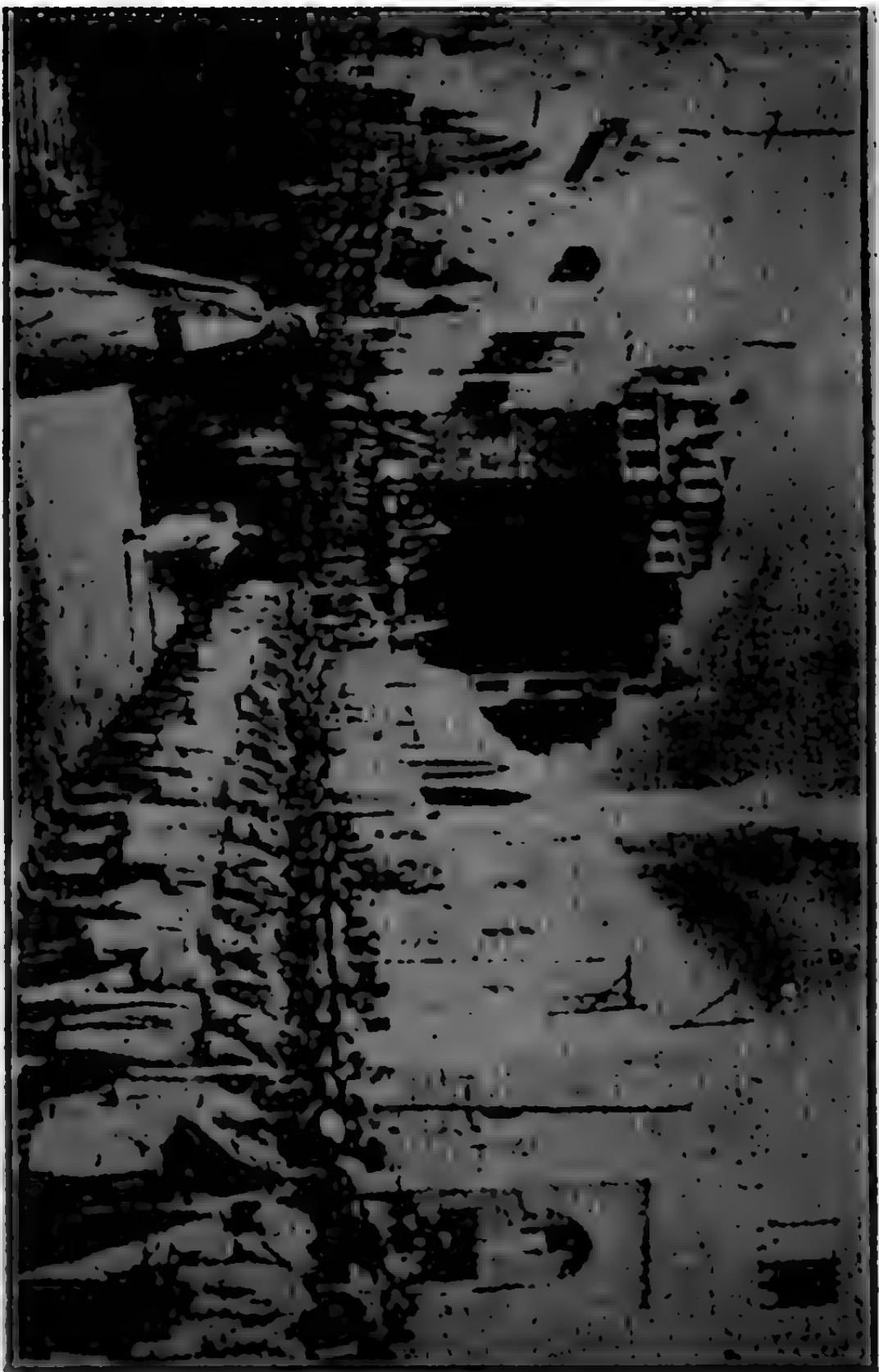
صورة لباب الكعبة ويرى سادنها فيه يدعو لجلالة الملك



فريق من الصحفيين في ثياب الاحرام وهم الشاعر الزركلى ونبيه
بك العظمة والسيد عبد الوهاب نائب الحرم والاستاذ محمود
أبو الفتح والمؤلف وأمامهم ابراهيم افندى شاكر



الموائد الافرنجية في وادى فاطمة وبرى الامير فيصل وعلى يمينه ويساره ممثلو انجلترا والروسيا



الجيش المجازي مصطفًى في الطريق الى باب الصفا - من أبواب الحرم - لمرور سمو الأمير فيصل



سمو الأمير فيصل سائراً في الحرم الى باب الكعبة
وأمامه العبيد في أيديهم المباخر ومندوبو الصحف المصرية حوله

في الطريق الى ينبع

رأيت نفسي أتساءل - وأنا أصافح ربان السفينة وأستفسر منه عن الجو وما ينتظر أن يكون ، والبحر وهل يرجى أن يكون ليناً ،

• ماذا يرجى لهذه الأمة العربية التي سنشهد بعد أيام احتفالها بمبايعة ملكها ؟ هل تكرر على العالم نهضة جديدة ؟ أودع الكر فقد تكون مسافة ما بينها وبين العالم أطول من أن تعين عليه أو تجعل له محلاً ، وسل هل في وسعها أن تشق طريقها الى منزلة من منازل الحياة العزيزة ؟ »

ومن عجائب النفس الانسانية أنها تتسع لهذا الازدواج : هذا الربان أمامي أجاذبه أطراف الحديث وأنتقل معه من جد إلى هزل ، وأعرفه بهذا وذاك من إخواني ، وتتسع حلقة الكلام وترحب دائرته وتكثر شعابه ، ويذهب هو يصف لي ميناء ينبع وجده وكيف تكثر في مدخلها الصخور ، وأنا منصت مرهف الأذان لكل حرف ، ولساني يجري بالكلام مجاوباً أو ملاحظاً أو مسائلاً ، وإذا بخاطر آخر يشغل من النفس الحيز الأكبر ويدور فيها ويأبى إلا أن أعنى به وألتفت إليه . ولعل



الأدوات التي استعملت لطهي الطعام في وادي فاطمة

للقلب في أثناء ذلك التفاتة أخرى الى الأهل والايوان والى ما خلف المرء ووراءه من معاهد حياته ، وأغرب من هذا أن تكون الالتفاتة عمومها كالخصوص فهي لفظة شاملة محيطية ، ولكل شخص ولكل حادثة حظ نسبي من البروز ، ولكل ذكرى محلها ولكل عهد مكانه ، بلا بنس ولا وكس . على أن هذا ليس موضع الافاضة في قدرة النفس على الاشتغال بأكثر من أمر واحد والانصراف الى كل شأن كأنها متخفية له ، فلنرجع الى ما كنا فيه .

لم أجب على سؤالي وان كان التفكير فيه قد شغلني طول الطريق ، لأن كل ما أعرفه عن العرب في حاضرهم مستفاد مما قرأت أو سمعت ، ولم أر موجباً للتعجيل بالجزم وليس بيني وبين المعاينة إلا أيام . غير أن هذا لم يعفني من إلحاح هذا الخاطر الذي ظلت النفس تواجهني به وترفعه قبل عيني على صور شتى . فمرة يكون السؤال كما أوردته ، وتارة يكون « هل في الأمة العربية مادة صالحة لما تتطلبه الحياة في العصر الحاضر من الكفاح المر ؟

وطوراً يهتف الأمل « أن هذه الأمة تغالب طبيعة بلادها الماحقة وتصارع أهوال الصحراء فلم لا تستطيع أن تكافح المصاعب التي تحفها بها الأحوال العارضة ؟ »

وربما جنحت النفس الى اليأس كلما تصورت بعد ما بين

العرب وغيرهم من شعوب الأرض المتحضرة وتعذر اللحاق بهذه الشعوب التي أغدت السير قرونا وهم يحدون الابل ويقتلون كما كانوا يفعلون في الجاهلية . بل كان اليأس بخامرني كلما تخيلت الصحراء الساحقة التي يصارعونها وكنت أقول لنفسي : « هل يتاح لأمة واحدة أن تنهض مرتين وأن يكون لها في التاريخ مدينتان عالميتان ؟ ألا تستنفد النهضة الأولى قواها وتعتصر حيويتها ولا تبقى منها إلا ما يبقى من ألياف « القصب » الجافة بعد مصه أو اعتصاره ؟ »

وهكذا الى غير نهاية ! فما لقينا من البحر ما يصرفني عن التفكير أو يعدل بخواطر النفس الى مجرى آخر . ولقد كنا في السفينة وكأننا في بيوتنا لا على الماء ، وكانت السفينة تفرق البحر وكأنها لا تمسه فلا موج ولا اهتزاز ولا دوار ، حتى لقد اشتقت أن يطغى بنا قليلا ليردنا الى التهييب ، غير أن البحر خيب أملى فيه وقد فرحت في أول الأمر بالفرصة التي أتاحت لي هذه الرحلة وقلت لنفسي إن المصريين يخرجون أفواجا الى الأقطار الأخرى وصار ذلك سنة مرعية عندهم ، حتى ليخيل للبرء في مقدمة المصيف أن هذه الأمة المصرية قد أزمعت أن نهاجر الى واد غير واديهها ، وكنت في صيف كل عام أخشى أن لا يبقى في البلاد غيري ، وأن لا يعمرها سوى ، فلما عرضت هذه المناسبة

للسفر الى الحجاز في الشتاء قات : حسن ، دقة بدقة والبادى أظلم ،
لقد عمرت الوادى من قبل فلتعمره الأمة الآن ، ولتقم عنى بواجب
الحراسة التى أرانى كأنما كنت موكلا بها ، فما أحسب أحد أطاق
أن يقم كما أطق ، كأنما كنت كلباً حارساً لا إنساناً له ديباجة
تخلق ، وتستحق أن تتجدد .

وسرنى على الخصوص أن السفر الى الحجاز لا إلى الغرب ،
ذلك أن الغرب يزور مصر ، ولو شئت لقلت انه يغزوها ،
فلسنا نحتاج ان نزوره ، أما الحجاز فأمره مختلف جداً . ولنحن
خلقاء أن نجعل علمنا بالشرق العربى أعمق وصلتنا به أوثق
وارتباطنا به أمتن . وما أحسبني أبالغ حين أقول إن مستقبل
الشرق واحد وان تفاوتت خطى أبنائه . ومن الجهل أن
نشيخ بوجوهنا عنه ، ومن الخرق أن تتجاهله ومن البلادة
أن ننسى أننا مرتبطون به وان خفيت الخيوط ، ومن الغفلة
أن تتوهم أن الرحيل لا يكون نافعا إلا الى الغرب ، وأنه لا فائدة
تكتسب من زيارة الشرق والاطلاع على أحواله

وعرفت أسماء رفاقى فأطرقت أفكر : هذا احمد زكى باشا
أحدهم وهو شيخ العروبة أولا أدرى ماذا يسمونه أو يسمى نفسه
وهذا آخر من المجاهدين فى سورية ، وهذا ثالث كان له فى حركة

الاستقلال السورى دور هو أشبه بقصص السندباد البحرى «١»
فماذا عسى أن اكون بينهم؟ أين يذهب الصعلوك بين الملوك؟
هل فى مقدورى حين أنخر أن أدعى أنى أكثر من جندى صغير؟
ثم هؤلاء زملائى وليس بينهم إلا من هو أنشط منى وأجراً .

واستعرت من زميل لى مبرة ، وملت الى الحاجز على ظهر
السفينة وأرهفت أقلامى ، ثم لم أجد لى عملاً بعد ذلك فأقمت حد
المبرة على حديد الحاجز ورحت كأنى أقطع ، فسمعت قائلاً
يقول لى :

« رفقاً بالسفينة يا صديقى ! أو بمبراتك اذا كان أمر السفينة
لا يعينيك ! » فالتفت فاذا انجليزى فى مثل ثياب الریان .
فقلت له :

« المبرة عارية وقد آن أن أردھا »

فابتسم وقال :

« بعد أن شحذتها ؟ »

فسألته وأنا أشير الى رجل فى مقدمة الباخرة :

« من هذا الرجل ذو الوجه الأمر والنظرة الوحشية ؟ » .

(١) هما نبيه بك العظمة والأستاذ خير الدين الزركلى من

المجاهدين فى القضية العربية .

فقال : « هذا الكبتن ... لقد كان ضابطاً في البحرية
البريطانية وأبلى في الحرب الكبرى بلاءً حسناً ، وقد سرح وهو
الآن يعمل في هذه الباخرة »

فتركته ، وسرت خطوات فرأيت أمامي سلباً صعدت عليه
فألفيت أمامي قوارب النجاة فدنوت من أولها ، وخطر لي أن أمتع
نفسي بالجلوس فيه ، فشرعت أرفع رجلي لأخطو إلى جوفه وإذا
بيد على كتفي تجذبي وصاحبها - أعني صاحب اليد - يقول
« انى مضطر أن أحملك على ترك هذا . وإذا كنت تريد أن
تعرف شيئاً فأرجو أن تسألنى ... »

ولم يتم كلامه بل تركنى وقفل راجعاً إلى حيث لا أعلم كأنما
ناداه أحد وان كنت لم اسمع صوتاً ، فدنوت من خادم وسألته عنه
من يكون ؟ فقال

« هذا الكبتن ... مساعد الربان »

فقلت : « هذا أكثر مما أطيق . اسمع . انك مصرى مثلى
فاصدقنى . إذا أغمضت عيني وسرت في هذه الباخرة ووضعت
يدي على أول رجل أصطدم به فهل يمكن أن يتضح أنه ليس
بكبتن ؟ »

فضحك الخادم وهو من السويس وقال :

« لا أدري ، ولكنى أرجح أن تصطدم بالكبتن الملاحظ فانه

مورانك الآن وعلى مسافة مترين فقط . »

فانحدرت الى غرفتي وأنا أقول لنفسى : « ان السفينة التى لها
رئيسان تغرق فكيف بواحدة عدت من (كباتها) أربعة الى
الآن ! اللهم لطفك ! » وفترت رغبتى فى الطعام ، وكان نبيه بك
العظمة يحرضنى عليه ويلح على أن أصيب منه قليلا ، فاعتذرت
بالآلم الذى سببته لى حققتا الكوليرا والتيفوئيد ، وكتمت عنه
وعن زملائى أن للسفينة مائة رئيس حتى لا أزجهم .

ومضى اليوم الأول وأصبحنا دون أن نتصادم « ارادات ،
هؤلاء القباطنة أو الكباتن ، فذهب عنى بعض الروع وعادنى شئ
من الاطمئنان . واتفق أن سألنى بعض رفاقى :
« بسرعة كم ميل تسير هذه السفينة ؟ »

فقلت : « لا أدرى ، ولكنى أقدر أن سرعتها لا تتجاوز اثنى عشر
ميلا بحرياً فى الساعة »
فصاح بى واحد :

« مهلا ! ان سرعتها خمسة أميال فقط !

قلت : « خمسة أميال ! ياللعار ! لو سرنا على أقدامنا
لسبقناها ! »

فعاد يؤكد الأمر و يقول انه استقى هذه الحقيقة من الكباتن
فأيقنت أنه لولا كثرة القباطنة لكانت الباخرة أسرع . وقلت

لنفسى اذا كان البطء كل ما تؤدى اليه كثرتهم فلا بأس .

واستيقظت بعد ظهر يوم على صياح عجيب ، لاهو صياح ولا هو استغاثة ، لأن فيه انتظاماً ولأن فى الصوت تنغيماً ، فاستويت قاعداً وأرهفت أذنى نخيل الى أن الألفاظ عربية ولكن اللهجة غربية ، ثم تبیت لفظين هما : « الله أكبر ! » ولكن اللسان الذى يعلو بهما كان أعوج ملتوياً ، فعجبت ثم تذكرت أنها احدى سفن « البوستة الخديوية » وهى شركة انجليزية تسير بواخرها بين السويس والسودان جيئة وذهوباً ، وتنقل الحجاج - فيما تنقل - الى ينبع وجدة - وقد رأينا بعضهم فى الباخرة على غطاء مخزن البضاعة حيث يفرشون السجاجيد ويكديسون أمتعتهم ويحشرون أنفسهم بينها تحت سماء الله - وهذا هو مكان الدرجة الثالثة .

وقد قلت لنفسى لما سمعت هذا الصوت : ان الانجليز قوم يتوخون أن يتكيفوا على مقتضى الظروف ووفق ما تتطلبه الأحوال وهذا الذى سمعته أذان أى دعوة الى الصلاة ، وليس مما يتنافى مع الشذوذ الانجليزى أن تكون الشركة قد عينت للأذان فى الباخرة واحداً من هؤلاء « الكباتن » الذين لا أدرى ماذا يصنعون جميعاً فى سفينة صغيرة كهذه ،

وسرنى وأضحكنى أن المؤذن « كبتن » انجليزى ، وقلت أشرك اخوانى فيما يفيد العلم بذلك من المتعة ، فعدوت الى سطح الباخرة

حيث كنا نجتمع فالتقيت بواحد أقبلت عليه أفضى اليه بخبر هذه البدعة السكسونية ، فضحك ، ولكن منى ، ثم أشفق أن يعرف زملائي زلتى فيركبني الثقلاء منهم بالسخرية ، وأوماً فاذا تحت أنفى جماعة من العرب يصلون ، واذا صوت الامام كصوت المؤذن فيه ذلك الالتواء الذى خدعنى .

وكانت سلوتنا الحديث والنظر الى البحر ، و« الطاولة » وكان بطلها - أعنى الطاولة - أحمد زكى باشا ، غلبنا جميعاً وأقر لكل منا بأنه خير لاعب ؛ وفى زكى باشا نشاط وجلد وقدرة على الاحتمال وحلم وظرف وعطف ودعابة ؛ راعنى منه ، وكان لنا كالوالد يحنو علينا ويسأل عنا ويتعهدنا ولا يؤثر نفسه دوننا بملهاة ، ولا يستبد برأى أو يصر على اقتراح جداً كان أو هزلاً ، بل رأى عنده مارأت الجماعة ، يتقبله مرتاحاً وينزل على حكمه راضياً ولو كان هو مقتنعاً بصواب ما يذهب اليه ، وكان أعذب الجميع حديثاً وأمتعهم مجلساً نبيه بك العظمة والاستاذ خير الدين الزركلى ، فتعلقت بهما وأثقلت عليهما بمحضرى ، ولم أدع لهما راحة ، ولم يبخلا على شئ مما استخبرتهما عنه فكانا يهضبان لى بما رأيا وجربا وكابدا فى رقع شتى من الأرض فى الحرب والسلم ، ولم يكن لهما منى مناص أو مهرب سوى البحر ، وهما لا يزالان أوسع آمالا فى الحياة وأطلب لرغائبهما منها وأقوى رجاء فى الله وفى بلوغ

الغاية القومية من مساعيها ، من أن يفكرا في الانتحار فراراً مني ،
لذلك توثقت بيتنا العرنى كارهين أو راضيين ، فلما بلغنا ينبع صرنا
وكان صداقتنا أقدم عهداً من الجبال .

ولست أنسى منظر الزملاء وقد اعترتهم نوبة « الكتابة » -
وتصور سبعة أو ثمانية قد جلسوا على الكراسى المسمرة وأقبلوا
على الورق والبطاقات يسودونها لما علموا أنهم مصبحون في ينبع .
وأنهم قد يستطيعون أن يبعثوا برسائلهم من هناك « ١ » - إلى أهلهم
واخوانهم وصحفهم ، ويكفي أن يجلس واحد للكتابة ليحتذى
الباقون مثاله ويعديهم بالرغبة في ذلك ، فليست الثوباء وحدها هي
التي تعدى ، ولا القروود دون خلق الله هي التي تنزع إلى التقليد
ولو أن القارىء رآنا في تلك الساعة ونحن مكبون على الورق
ذاهلون عن كل ما في الدنيا لكان أول ما يخطر له أننا قد آلينا أن
نصدر في الباخرة الصحف التي نمثلها ، أو أن هناك امتحاناً
معقوداً لنا .

وعرض علينا أحد رجال السفينة بطاقات عليها رسمها فخطفناها
حتى نفدت ! كما نفذ ورق الخطابات . وتصور سبعة أو ثمانية
يستنفدون كل ما في الباخرة من ورق وخطابات ، أليس هذا دليلاً

(١) اتضح فيما بعد أن ابقاء الرسائل في جيوبنا أسرع من
إرسالها من ينبع أو جدة .

الى الهمة والنشاط والخصب؟ وأحسبني مسئولاً عن العدد إلا كبر
من هذه الأوراق التي استهلكت ، فقد نازعتنى نفسى أن أكون
تفرجاً لا كاتباً ؛ وأن أمتع عيني بمناظر الوجوه المكبة على الورق
ما يظهر عليها من دلائل الاجهاد - اجهاد القرائح الخصبية -
لجأت الى الحيلة وقلت أكتب رسائل بالجملة ، فجئت بورق
لكربون ووضعته بين الخطابات ، وكتبت رسالة واحدة وجيزة
م جلست أتفرج !

وكان أحداً يكتب يوميات عن هذه الرحلة وكان يختصنى
هذا السر ، ولا أدرى متى كان يكتب يومياته ، فما رأيته قط خلا
نفسه أو بكر إلى مخدعه ، وقال لى مرة :

« لقد صارت مذكراتى ضخمة . كتبت اليوم ست صفحات
ر كتبت البارحة سبعة ، وأول من أمس تسعاً ، فما قولك ؟ »
فقلت مستغرباً : « كل هذا ؟ وأى شئ وجدته يستحق
لتسجيل ؟ »

قال : « كل شئ . خطوط الطول والعرض ، ووجوه القمر ،
وأدوار الطاولة التي لعبتها وفي أيها كنت الغالب أو المغلوب ،
والأسماك التي رأيناها فى البحر ، بعضها يطير على سطح الماء ،
وبعضها يهاجم السفينة طلباً للقوت ، والبواخر التي مرت بنا فى الليل
وحينها والآنمى التي هي تابعة لها - وعلى ذكر ذلك أسألك هل

تعرف لماذا لا نرى باخرة في النهار؟ ألا تعرف؟ - وكم كذبة كذبها... فلان... اليوم، وحالة البحر والرياح، فإن كانت لا تتغير ولا تكاد تختلف يوماً عن يوم، وهذا عمل، أليس كذلك؟ وكم صورة أخذها رياض وكم صورة أخذتها المدموازيل عابدة، كل شيء، كل شيء، حتى لقد أفردت «لأكلة الصيادية» عدة صفحات، إنها تستحق ذلك فقد كانت أكلة غير منتظرة وكانت لذيذة. والبول المدمس! أوه. له وحده صفحاتان. ألا تراه جديراً بذلك؟ مدهش. مدهش أن نأكل فولاً مدمساً على الباخرة تالودي الانجليزية!

فسأله بعد أن انقطع نفسه: «وماذا تنوى أن تصنع بهذه المذكرات بعد أوبتك؟»

قال: «سأطبعها وأنشرها: كم تظن أنها تساوي؟ أعني كم تتوقع أن أربح منها؟»

قلت: «تساوي: تساوي إذا اعتبرنا عدد الصفحات ووزنها قياساً على ما كتبت إلى الآن مائة جنيه أو مائتين،

فصاغني مسروراً وهو يقول: لقد قدرت لربحي مثل هذا... تماماً..»

فقلت مستدركاً: «إنما أعني ثمن الورق الذي تملؤه... أما الربح فلا أدري. ربما كان أكثر وقد يكون أقل،

فلم يضعف أمله وقال « تمام . تمام . تقديرك على كل حال مضبوط » ومضى عني
ولما كنا عائدين من مكة سأله : « الى أين وصلت في مذكراتك؟ »
فطال وجهه وقال : « يا أخى الحق أقول لك إن كتابة المذكرات
عمل مضمّن . ثم انى لأجد الوقت . نحن فى حركة دائمة فتى أكتب؟
على أنى سجلت كل شىء فى رأسى . فان ذاكرتى قوية وأنا
أذكر حتى الأحاديث بالفاظها ولو كان عمرها أعواماً . فلا خوف .
انتظر حتى نرجع ونطمئن »

وفى الساعة السادسة من صباح السبت (٤ يناير) أيقظنى
أحد الزملاء وأبلغنى أن الشاطىء قد ظهر ، فقلت له وأنا أئير غيظاً
انى لا أحفل بالشواطىء - ولو كانت شواطىء الجنة - فى الساعة
السادسة صباحاً ، فذهب عني وأغمضت عيني ، ولكن غيره جاء
ثم غيره ، فأيقنت أن الحماسة التى أوقدها ظهور الشاطىء لن تدع
لى جفناً يغنى . فقممت متثائباً متثاقلاً ووقفت متكئاً على الحاجز
فلم أر شيئاً فالتفت الى أول من أيقظنى وقلت بلهجة المعاتب :
« أين هذا الشاطىء الذى بدا لك ياسيدى ؟ »

فقال : « هذا . ألا تراه ؟ غريب . انى أستطيع أن اشير الى
المكان الذى سترسو أمامه الباخرة . لا بد أن يكون هذا »

ومرت الساعات ونحن زروح ونجى وهو فى مكانه لا يتحول عنه ولا تتعب رجلاه . وبدأت ينبع ملفوفة فى الضباب ، حتى جبال رضوى التى تظهر من ورائها خلناها ضبابا من اختلاط السحب برؤوسها ، فاختلفنا وتراهننا ، وشرعت السفينة تدور لتدخل المرفأ فقررنا جداً من الساحل وشاء الحظ الساخر أن يكون المكان الذى أشار اليه صاحبنا وأصر على أن الباخرة سترسو عنده ، هو المقبرة

ورست الباخرة ، فى المرفأ لا أمام المقبرة ، وأقبل الصبيان يسبحون اليها كالسمك وينادوننا أن نلقى اليهم بالقر وش ليلتقطوها فرحنا نرمى اليهم بالقرش بعد القرش وهم يتزاحمون عليه ويغوصون وراءه ويتلقونه بأكفهم وهو يهبط فى جوف الماء قبل أن يبلغ القاع . فمن فاز به دسه فى شدقه ، حتى اتفخت أشدا فهم وصارت وجوههم مشوهة بشعة المنظر

وركبنا زورقا الى المدينة . وهى صغيرة فقيرة ، وبها مساجد كثيرة أشهرها مساجد ابن عطاء والخضر والسوسى ، وأهلها وكلاء للتجار أو عمال لهم ، وليس فيها زرع ولا ضرع ، وبها آلة لتصفية ماء البحر للشرب يسمونها « الكندسة » وهى انفضة محرقة عن الكوندنسر . فاستقبلنا قائم المقام الشيخ مصطفى الخطيب وهو من أهلها وكان عاملاً عليها فى عهد الحسين فلم تنحه الحكومة

السعودية ترفعا منها عن حمافات العزل والنأمير . و زرنا دار
الحكومة وهى ابسط ما تكون : بضعة مكانب فى الدور الأرضى ،
وفى الدور الذى فوفه غرفتان إحداهما للقاءمقام وئبها مكتب
وسجادة ولشبايبكها ستائر . وفى الاخرى مكتبان صغيران . وبعد
أن شربنا القهوة النجدية ثم « الشاهى » كما يسمون « الشاى »
استأذنا وانحدرنا الى المدينة نطوف فيها الى أن يخرج الامير
والناس من صلاة الظهر ، فمررنا بالسوق وهى حارة ضيقة مسقفة
على جانبيها الدكاكين فيها صنوف شتى من العطارة والبقول
والمنسوجات والخبز والاسماك والجراد . وقد أكل منه زكى باشا ،
ولم يكن فى الدكاكين أحد لأنه كان وقت الصلاة ، وكان الطريق
غاصاً بالاطفال يشون ورائنا ويحفون بنا فى خرق ممزقة ومراقع
لا تكاد تستر شيئاً ، فتساءلت : ماذا يحمى هذه المتأجر أن يسرق
منها هؤلاء الغلمان الفقراء ؟؟ فقليل لى انه لا خوف منهم لأنه مامن
أحد بجرو أن يسرق شيئاً ،

وبلغنا آخر السوق حيث المسجد وكان الناس قد فرغوا من
الصلاة فوقف رجل أمام كوم من السكلا وقطع من الحصير
وأعواد من الخشب يبيعها بالمزاد ، وكل ما أمامه لا يساوى ريالاً
ولم أر امرأة ولا بنتاً ، الا واحدة فى نحو السابعة من عمرها
ملفوفة فى ملاءة قدرة وفى إحدى أذنيها قرط من العقيق ؛ وقيل

لى إن النساء لا يخرجن من البيوت ، والأهالى خليط من كل جنس وملة . وسجنهم معرض للأمم الشرقية ، فمن زنجى الى جاوى ، ومن عربى الى مصرى ، ومن هندى الى فارسى ، ومن سورى الى سومالى ، وهكذا .

وزرنا الأمير - أى الحاكم - عبد العزيز بن معمر ، وهو شاب نجدى جميل الطلعة وسيم المحيا مقدود قد السيف ، والدار على الطراز الشرقى القديم الذى كان مألوفاً فى مصر منذ أكثر من خمسين عاماً ولا تزال بعض آثاره باقية فى الأحياء الوطنية التى لم تمتد إليها يد العمران الحديث مثل الكحكيين وسوق السلاح ، وغرفة الاستقبال فى داره مفروشة ببساط أحمر والكراسى (الخيزران) صفان على الجانبين ، وفى الصدر مصطبة مفروشة بالسجاد العجمى وعليها الوسائد لجلوسه وكان الأمير يلبس جلباباً من السكرورة فوقه معطف من الكشمير عليه عباءة حمراء وعلى رأسه العقال الأسود والمسدس مشدود الى وسطه والسيف المذهب المنبض يتدلى من حمائله ، ومن عاداتهم أن يجلس حرسه الخاص على جانبي الباب من الداخل فى نفس الغرفة ، ويجلس الباكون من الحراس خارجها وهم جميعاً مسلحون ، والسيوف والبنادق والمسدسات وأحزمة الخراطيش معلقة على الجدران فكأن الغرفة مخزن سلاح لاجرة استقبال

وفي ينبع بلدية ، ومكتب تلغراف لاسلكي ، ومدرسة أولية ابتدائية يديرها مصري طبقاً لمناهج التعليم المصرية وفيها نحو مائة وتسعين تلميذا متفوقى الاسنان والأطوال ، متباينى الثياب مختلفى الوجوه . ومصاحبة للصحة الخ

وقد شعرنا من أول لحظة أننا فى بلاد مستقلة فلا أجنبي هناك ولا نفوذ ولا سلطان الا لأبناء البلد وكل موظف حجازى حتى اللاسلكى عماله ومديره حجازيون ، وقد أبى زكى باشا الا أن يرى هؤلاء العمال وهم يبعثون بتحيتنا الى سمر الأمير فيصل فى مكة كأنما لم يكن يصدق ان لابسى العباءة والعقال يستطيعون أن يحسنوا ما بحسنه الأوربى من الاعمال الآلية على الأقل .

وودعنا الأمير بعد أن أخذت صورتنا معه وعدنا الى الباخرة وهناك جاءنا وفد من ينبع ليرد لنا الزيارة ويشكرنا ، وبعث اليينا الأمير بعدد من الخراف هدية منه عوضاً عن الغداء الذى لم نستطع أن نجيب دعوته اليه اذ كنا قد تغدينا فى الباخرة .

فخرنا ماذا نصنع بهذه الخراف ! وعقدنا مؤتمراً للتشاور . فقال واحد نردها شاكرين ، ولكن هذا كان مستحيلاً ، واقترح ثان أن نردها ولكن لتذبح وتوزع على فقراء المدينة ، ولكن هذا كان رداً على كل حال ، وفيه فضلاً عن ذلك خشونة التعريض بالمدينة وأهلها وحكومتها ، وقال ثالث ان فى الباخرة حجاجاً فقراء فلنذبح

الخراف لهم ولنوزع لحمها عليهم ، ففعلنا
وهكذا كان كل اقتراح مولداً من الذى سبقه ، وأنتج الخطأ
فى آخر الأمر الصواب . ولا عجب ، فما من خاطر أو احساس الا
وهو وليد خواطر أخرى واحساسات شتى . وليس فى الدنيا الا
آدم واحد بلا أب أو أم .

وفى ينبع وجدت «صندوق الدنيا» . وكنت أحسبني حططته عن
عاتق فى مصر . وكان ظنى أنه يسعنى بعد أن سافرت أن أمشى
خفيفاً لا يشغل كاهلى هذا الحمل ولا يحنى ظهري ثقله ، فاذا بى قد
صرت كالأحدب لا يدخل فى مقدوره أن يستوى قائماً كغيره
من بنى آدم الذين كتبت لهم السلامة من اعوجاج الخلق وحب
الظهر وقال لى واحد :

« لقد قرأت صندوقك »

فغاضنى ذلك وإن كان قد سرنى . وقلت « سأضعك فيه ان
شاء الله بعد عودتى » فأقبل على يرجو منى ألا أفعل ، فقلت :

« لى شرط »

« قال ماهو ؟ »

قلت : « أن تعفينى أنت واخوانك من ذكره والا
حشرتكم فيه جميعاً »

قال وهو يضحك :

« ولكنه والله ممتع »

« قلت : «وسيكون الجزء الثانى أمتع بوجودكم» فامتقع وجهه ،

وأحسبه خاف أن أرسم له صورة ثمسخه وتجعله أضحوكة

فطمأنته وأكدت له أنى أمرح . فسألنى وقد سكنت نفسه :

« ولكن لماذا تذكره أن يذكر لك ؟ »

فقلت له : « إن الذى يضحكك منه هو الذى أبكاني

وأحسبني معذوراً اذا كنت ازهد فى كل ما يذكرني بسخر ماجرت

به المقادير . فاذا كنت تفهم هذا فيها والله الحمد ، والا فأمسك

ودعنا نستمع الى الباشا وهو يتحدث عن العروبة ويذكر الجواد

الذى أهداه اليه جلالة الملك عبد العزيز فلم يدر كيف يركبه أو

يطعمه أو يلجمه أو يسرجه - سله ألم يخطر له أن يطعمه كنافه فى

رمضان ؟ سله أ كان يأكل - أعنى الجواد - من المـدود أم

كان الباشا - يبسط له السماط ويمد له الخوان ؟ »



وفى ينبع عشرة آلاف نسمة واقل من مائة جندي، والحكومة

كأبسط ما تكون ، ولا حاجز هناك بين الأمير وأحققر الأهالى ،

وسلطان الحكومة ليس مستمدا من الخوف الذى تبعثه القوة ،

بل من الاحترام والحب والتعاون ، وآية ذلك أن الناس صريحون

مع حكاهم وأن الحكم لا يبدو عليهم تكلف ، ولا تكون الصراحة مع الخوف والتقية ، ولا الخوف مع البشر الذى ينضح به الوجه ولا يخفى فيه صدق السريرة ، ولا هذه البساطة المبتسمة مع القسوة والاستبداد . ولم اسمع فى المرتين اللتين زرت فيهما ينبع ، أمرا يلقي ، أو كلمة ملق ودهان تقال ، ولقد كان أمير ينبع يسر الى الرجل من حرسه أن يطلب القهوة أو « الشاهى » أو يدعو فلانا أو علانا أو يفسح الطريق ، وكنت أراه وهو يميل عليه كأنه يهمس فى أذنه نكتة أو كلمة سارة . ولم تأخذ عيني منظر قسوة واحدا ، وكثيراً ما كانوا يفسحون لنا الطريق أو يصدون الناس ليوسعوا أمامنا - فى ينبع وفى جدة وفى الكندرة وفى مكة وفى وادى فاطمة - وكان الذين يتولون ذلك الجند . ولكن بإشارة يد من غير أن يدفعوا فى صدور الناس أو يرفعوا فى وجوههم عصا أو يتجهموا لهم وهم يصنعون ذلك وقد عدت من ينبع الى الباخرة وأنا أحس أنى بدأت أفهم ، وقد زدت فهمي لما زرت جدة ومكة . ذلك ان الرعية راضية وان الحاكم والمحكوم متعاونان



وقد اقتنعت ، وأنا لا أزال فى الباخرة قبل أن أصل الى جدة أو أضع رجلى على رصيف مينائها ، بأن المرأة النجدية تعرف

السفور ولا تعرف الحجاب ، وكان اقتناعى بالمشاهدة والمعاناة وليس بالسمع ، ورأيت من الحزم أن أكتف عن زملائي ورفقائي فى هذه الرحلة هذا السر الذى اهتديت اليه لأنفرد بالعلم به وأستأثر بفضل اكتشافه والوصول اليه ، وقلت انفسى : ان الصحافة سبق ، ولن تكون لى مزية على اخوانى اذا عرفوا كل ما أعرف ، ومالى انا بهم ، ؟ أليست لهم عيون مثل مالى ؟

ونزلنا فى ينبع وجبنا طرقاتها ومررنا بحوانيتها ورأينا ناسها : وكنت اسمع زملائي يتحدثون عن المرأة والحجاب المضروب عليها ويرددون ما سمعوا من أنها لا تخرج ولا تظهر ولا يراها غير زوجها وذوى قرابتها الأدنين ، فأبتسم ساخرأ وأهز رأسى هازئاً متهمكاً وأردت نفسى بجهد عن أن أصبح بهم :

« يا عميان ! ان نصف من ترون فى الطرقات نساء تحسبوهن رجالاً ! »

وقد رأى زملائي المساكين جدة ومكة وما بينهما وعادوا وهم على ذلك يعتقدون ان النساء النجديات محجبات ! مساكين ! لكم وددت أن أشق لهم بالمبرة جفونهم المطبقة ليصروا وكم نازعتنى النفس أن أخطبهم على ظهر السفينة ونحن راجعون ، وأن ألقى عليهم محاضرة فى النظر وكيف ينتفع صاحبه به ولكن الأثرة غلبتني ، وحب الذات كان أقوى فتركتهم يرجعون كما ذهبوا بعيون

مفتوحة كمغمضة . وكان احتمالي هذا السكتان وقدرتي على الامساك على سر ما غلبت . جهداً شاقاً لم اكن لأقوى عليه لولا الارادة المصممة . والآن وقد امتحنت ارادتي وأيقنت اني نجحت ، أراني أستحق ان أرفه عن نفسي بالافضاء وأن أرخي أعصابي المشدودة بالبوح بما أحسنت كتمانها .

لما صرنا أمام رابع أحرمت الباخرة - أعني ركبها الذين يسوون ان يقصدوا الى مكة مباشرة فظهر بيننا فجأة رجل نجدى قيل لي انه أمير في قومه وحوله حاشية كبيرة من اتباعه وعبيده . وكلهم محرم ، والاحرام لا يمنع ان يلبس المرء سلاحه . فكانوا يحملون فوق ما أحرموا به المسدسات والخنجر وأحزمة الخراطيش واتصلت بيننا وبين هذا الأمير الأسباب ، فاختلفنا وصار عبيده وخدمه يسقوننا من قهوتهم النجدية الحادة ، وهم يقدمونها في فنجانة كبيرة مفرطحة يصبون فيها نقطة . او رشفة . نحتاج لكي نشربها او تلحسها او تنقلها الى فمك . ان ترفع وجهك الى السماء وتقلب الفنجانة على فمك لينحدر ما فيها الى لسانك ، حتى اذا فرغت دون ان تقع على الأرض رددت الفنجانة فصب لك فيها رشفة أخرى اذا راقتك الحركة التي يكلفك اياها شربها والا هزرت الفنجانة علامة الاكتفاء . وقد سمعت - وصدقت - ان القهوة النجدية تقوى عظام العنق . وقد سمعت ايضا - ولكني لم

أر هذا - أنهم يعقدون مباريات لشرب القهوة وهم وقوف
وكان معنا « رياض افندى شحاته » المصور المشهور فدعاهم
الى الوقوف معنا ليصورنا ففعلوا وكنت غائبا فتنادوني فأسرعت
اليهم ووقفت حيث وجدت نى مكانا واذا برياض افندى يدعوني
أن أتزحزح عن مكانى ويشير الى جارى فالتفت الى يمينى فلم
يسعنى الا أن أراجع بسرعة والا أن أقول :
« بردون مدام ! أعنى معذرة ياسيدتى ! لقد زاحمتك وأنا غافل
عن وجودك فلا تؤاخذينى ! تفضللى »

وتنحيت بعد هذه الخطبة التى لم ترق من سمعها من انبوائى
فصاح بى واحد :

« ماذا تقول ؟ قف يا اخى هنا . نعم هنا واسكت . »
فهزئت رأسى أسفاً مستغرباً قلة ذوق هذا الزميل الذى ينقم
منى تأدبى مع سيدة . فسمعت رياض افندى يصيح بى
« ماتهزش راسك يا أستاذ مازنى »

فخار الأستاذ المازنى بين رياض افندى وهذا الزميل الموبخ
وقال - أى الأستاذ المازنى - لجاره الى يساره :

« أنا كنت اعتذر فوبخنى زميلى لأدرى لماذا ؟ هل كان يليق
أن أكتم الاعتذار لها بعد أن فطنت الى غلطتى ؟ »
ففتح جارى عينيه جداً وقال بلهجة المستغرب

« ماذا تقول ؟ من تعنى ؟ »

وهنا صاح رياض افندى

« يا أستاذ مازنى اعمل معروف واقف ساكت خلىنا نخلص »

فقلت « اما ان هذا لغريب ! وهل انا الذى أعطلك ؟ الحق

اقول إنى صرت لأفهم » وأيقنت أن رياض افندى غائر منى

وقال واحد كان ورأى

« لا بأس . أجل الفهم الى ما بعد التصوير »

ف نظرت الى الأمير فرأيت يبتسم . وثبتت عيني الى جارتى

الرشيقة وشعرها الوحف المضفر الذى يفترق فوق جبينها الوضاء

ويلمع فى ضوء الشمس كأنه مدهون « بالبرينتتين » ، الى حور

عينها الواسعتين اللتين يزينهما الكحل . الى ديباجة وجهها الصافية

وماء الشباب الذى يترقرق فى وجنتيها ، والابتسامة الخفيفة المغربية

التي تفتت عنها شفاتها الرقيقتان

وأحسب عيني لم تتحول عنها ، وأظننى ظهرت فى الصورة

ناظراً اليها لا الى رياض افندى ، فما كدت ألتفت اليه حتى كان قد

فرغ مما يريد فقلت لا بأس ، واقبلت على صاحبتى أكرر لها الاعتذار

وهى لا تزيد على الابتسام ولا تفتح فمها قط حتى كدت أجن

شوقاً الى رؤية أسنانها التي لم أشك فى أنها من مفاتيح الكبرى

وأشرت الى فمي وقلت أستفزه الى الكلام

« أليس لك لسان ؟ أنت خرساء ! مسكينة ! يا لسخر الاقدار ! »
فهزت رأسها وقالت شيئاً لم أفهمه . وأعدت ماقلت ببطء شديد
ووضوح تام ، فضحكت وهزت رأسها ثانية ، وتكلمت ، ولكني لم
أفهم . فخطر لي أنها غير عربية ، وأنها لعلها فارسية أو افغانانية
وحررت بأى لسان أخاء لها ، ولحق بي فى هذه اللحظة زميل ف جذبني
وهو يقول :

« ماهذا يا أخى ؟ تعطلنا نصف ساعة حتى تحضر ونحن واقفون
تحت الشمس المحرقة ، وبعد أن تحضر يحلوك الكلام والابماء .
هذا شئ بارد والله ! »

فقلت : « ليس هذا ذنبى فقد كنت أودى واجب الاعتذار ... »
فقاطعنى قائلاً « اعتذارا يه يا أخى ؟ لا لا . هذا لا يليق !
لقد شوتنا الشمس . وان ننتظرك مرة أخرى ،
فتركه وملت الى غيره وهمست فى أذنه
« ألا ترى هذه السيدة ؟ ألم يركك جمالها ؟ »
فقال : « سيدة ؟ أى سيدة ؟ »
قلت : « أى سيدة ؟ هذه يا أعمى ! »
وأشرت اليها

فانفجر يقهقه وأنا أنظر اليه كالآبله ، ولما رأيت أن ليس لهذا
الضحك آخر مضيت عنه الى غرفتي فالحق بي فيها وهو يقول

« سيدة ايه يامولانا ! هذا رجل »
فانتفضت واقفا وصحت به مغصبا
« رجل ؟ تقول انها رجل ؟ أنا أم أنت الأعمى ؟ »
فعاد الى القهقهة ، وقعدت ، ثم قلت له
لقد كلمتها ووجهت اليها الخطاب بضئير المؤنث فلم تعترض
فكيف تزعمها رجلا ؟
قال : المسألة بسيطة . لم يفهم كلامك لأنه بدوى قح .
وأراهن أنك لم تفهم منه كلمة .
قلت : « صحيح . لقد حسبتهما افغانية »
فابتسم وهو يقول « ليتك ترى هذا الذى حسبته امرأة حين
بمتطى صهوة الجواد ويركضه الى القتال ويرسل شعره المرحل وينفضه !
أذن لرأيت ، أمامك وحشا مرعبا يميت مدوه بنظرة قبل أن يدفن
في صدره حربته »

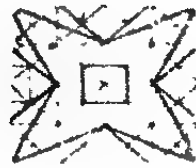
قلت : « والكحل ؟ »

قال : « هذا سنة »

فلوحت ييذى ومضيت عنه

ظاهرة عجيبة جدا هذه : النجدى المشهور ببوعورة الخلق فى
القتال ، يكون فى السلم كما رأيت فى الحجاز : على حظ عظيم من رقة
الحاشية والدمائة واللين والطراوة حتى ليستحيل عليك أن تصدق

أن هذا الرجل الذى يكاد يسيل من اللين ، يحسن أن يركب جوادا
أو يضرب بسيف أو يقوى على حمل رمح ، وقد رأيناه يفعل ذلك
كله فكاثما ركب الجواد ألف عفریت ، ولا أكتتم أنا خفناه !



في جمرة

بحر بليد - هذا هو البحر الأحمر - بليد كالرجل الذي تعابته
اليوم فيضحك غداً . والبليد صحبته متعبة ، ورفقته مشقة ، فان
حسن الفكاهة ولذتها - كحسن الكراهة - في تبادلها ، لا أن
ينفرد بها جانب أو ينوء بثقلها واحد . وقد ظلمنا خمسة أيام نسبح
- كالسلاحفة - على ظهر البحر ، وكانت السفن تمرق بجانبنا
كالسهم - أو كالأرنب مادمنا نذكر السلاحف ، ونحن نتببطأ
وتلكأ وأحسبنا كنا أيضاً نتراجع - ونداعبه ونمازحه وندغدغه
في كل موضع ونتاجيه ونناشده أن ينتبه ونسأله أن يتمطى ويشد
أوصاله ويتحرك . ولكن هيهات ! لم يشعر بنا البحر أولم يحفلنا
وأبت له البلادة أن ينتبه لوجودنا إلا بعد أن بارحنا ينبع ! بعد
ثلاثة أيام شعر بوجودنا فتثائب ! فانكفأ بعضنا فوق بعض ،
وصارت الرؤوس في مكان الأرجل ، وأطلت المعدات من الحلق
وذهبت الكراسي تقعد عاينا لانحن عليها ، وانقلب اظهر مافينا
وأبرز اعضائنا ، اقدمنا في الهراء فانتقمتم بذلك من جور الرؤوس
عليها وطول اغتصابها للراكن الملحوظة

ولم أر أنا شيئاً من هذا ولكنهم حدثوني بما صنع البحر بهم ،
فقد كنت نائماً وكان لي ايضاً غطيط عال يخفت صوت البحر
على مازعموا ، فجاءني زميل يقول .

« البحر هائج اليوم »

فانتفضت قائماً وقد فرحت وسررت أن البحر أولانا التفاتاً
وجعلت أروح واجيء بقدر ما استطيع في هذا الجحر الضيق الذي
يسمونه حجرة النوم وارفع صوتي بقول ذلك البدوي الساذج .

« البحر صعب المراس جداً لا جعلت حاجتي اليه !
أليس ماء ، ونحر طين ؟ فماعسى صبرنا عليه ؟

ولكن متى يا صاحبي فاني ما زلت فيما اشعر على اليابسة ؟ »
قال .. « ألم تشعر به ؟ »

قلت « ربما كنت قد حلت - بل انا على التحقيق احلم
بالبحر هائجاً طاغياً عنيفاً ، ولكن البلاء والداء العياء يا أخى انى
انسى في الصباح ما رأيت في احلامي »

فقال . « أوه . هذا كلام فارغ ! لقد كانت الباخرة في الليل
تلعب هكذا (وأخرج قلباً من جيبه وامسك به من وسطه وجعل
يرفع طرفيه على التعاقب) فكيف لم تشعر بذلك ؟ إن هذا
غير ممكن ! »

قلت . « عفواً . لقد فاتني نصف عمرى على التحقيق ، واخشى

ان يضع النصف الباقي ونحن عائدون . ولكنى كنت نائماً هكذا
معارضاً على طول السفينة . فبينما كانت اقدامكم انتم ترتفع فى
الهواء ورؤوسكم تهبط الى حيث تستحق ، كنت انا لا أشعر
بأكثر من حركة التنفس ، او بتقلب بسيط . آه ! لقد تذكرت
الآن انى كنت احلم بأنى اسبح فى الماء واخبط فيه بذراعى . صحيح .
صحيح ! ،

فلم يطق صبراً ومضى عنى . فلبست ثيابى بسرعة وعدوت
وراءه وقد تنبّهت فى نفسى كل غرائز السوء . فلما صرت على ظهر
السفينة - او ما يسمونه ظهرها وان كان فى حبة قلبها - خطر
لى انى لم أرا بدع من هذا الجو من قبل ، وانه لا عهد لى بمثل هذا
التألق فى الشمس والجمال فى البحر . وای شىء فى الطبيعة افتن من
منظر الجمال الوسنان ! ونازعتى النفس ان أعرب عن إعجابى
بكل هذا الحسن فى السماء والأرض . اعنى البحر - فرفعت صوتى
ارىد ان أغنى ، ولكنى لم أدر ما أقول فأقصرت .

وكنت انظر حولى فأرى رفاقى متشبهين بحديد الحواجز ،
فدنوت من أحدهم وقلت :

« سبحان ربى القادر ! كيف بالله رددت طفلاً لا تقوى على
المشى وحدك ؟ »
قال : ألا ترى ؟

قلت . « ماذا ؟ »

قال . « ماذا ؟ الا ترى مقدمة السفينة كأنها سهم مسدد الى الشمس في كبد السماء ! »

قلت . « معذرة يا صاحبي . لست ارى إلا ذنبها يحاول ان يغاطس الأسماك ليصطادها لطعامنا ، ليس هذا من البحر ولكنه من الربان . من اين يطعمنا إذا لم يفعل ذلك ؟ »
وهمت بأن اقول كلاماً آخر اثبت به نظريتي ، ولكن زميلاً غيره القى بنفسه بين ذراعى . فأكبرت هذه العاطفة منه وتمثلت فى سرى بقول الشاعر .

« اشوقا ولما يمض لى غير ليلة ؟ »

فكيف إذا خب المطى بنا عشراً ؟ ،

ثم التفت اليه وانا ارفعه عن صدرى الذى سكن اليه وقلت :
« اسعد الله صباحك ! جو بديع » .

فوضع كفه على معدته وهو يقول « آه يابطنى ! » وذهب يتخطر .

واشتاقوا جميعاً إلى معانقتى وانا واقف امام الباب اتلقاهم بين ذراعى مسروراً واهش لهم واقول للواحد بعد الآخر .

« هدى روعك ! انى مقدر عواطفك نحوى ، ولكن لا داعى الى العجلة فان الوقت امامك طويل يسمح حتى بأن تنظم قصيدة . »

فلا يزيد على ان يضع كفه على بطنه ويقول .. آه يابطني !
نخطر لى ان بهم عضه جوع ، فلما تلقيت آخرهم - وكنت قد
فطنت الى هذه الحقيقة - قلت له .

« نهارك سعيد . لقد كنت تريد ان تقول »
ولكنه قاطعنى وسبقنى وقال وراحته على معدته . « آه يابطني »
فعرفت انى مصيب فى إحالة مظاهر شوقهم الى شخصى الضعيف
على الجوع . على الرغم من تأكيد احد الزملاء ان البحر هائج وان
وجه « دفين » .



ولم نخف لرؤية جدة لما شارفناها ، ذلك ان الساعة كانت الحادية
عشرة صباحا ، والخادم كان يعد المائدة للغداء قبل مواعده ، فقلنا
هذه بشرى ، وجلسنا اليها . وحضر الطعام فلم نبال جدة كيف تبدو
ولم نكثرث لمرفئها اين رست السفينة منه ، فقد أقبلنا على الصحاف
« نأكل ما لا يحسب الحاسب » كأنما خفنا الا نقع فى جدة على
طعام ، فرحنا ندخر ما يكفى اياما ، وجعلنا نلتهم الشبايط
(السمك) والفراريج (الدجاج) بلامضغ مخافة ان يدركنا وفد
مستقبل فيشاركونا ، وصح فينا قول ابن الرومى .

« فكاه كالعصرين من دهره كلاهما فى شأنه دائب
ذى معدة ثعلبها لاحس وتارة ارنبها ضاغب »

تعلوه حمى شره نافض لكن حمى هضمه صالب
وصدق فينا المثل العامى (وقت البطون تضيع العقول) . فلما
صعد الطبيب الى الباخرة ودخل علينا ادار عينه فينا ولم ير احداً
رفع راسه فقال ،

« ماشاء الله ! ماشاء الله ! الحمد لله على السلامة ! »
وكانت الأفواه فى شغل بما فيها فرددنا بأيدينا واستأنفنا العمل
فقال .

« صحتكم طيبة والحمد لله » .

« مش بطالة : نحمد الله على كل حال » .

فقال « لعل البحر كان هادئاً » .

فلم يسمع سوى صرير الأضراس . فارتد مسرعاً ، وأكبر
الظن انه اندر قومه :

« أكل يتامى ما لهم كاسب » .

فقد خف الى الباخرة وفد كبير من شيوخ جدة وأعيانها -
جاءوا ، كما أرجح ، لينظروا بأعينهم كيف نفترس الطافى ونغوص وراء
الراسب ، ونعمل أضراسنا فى الجامد ، ونعب فى الذائب ، ولكننا
عجلنا قبل مقدمهم ، وفرغنا من هذا الشأن قبل ان يضعوا رجلا
على سلم الباخرة ، فلما صعدوا إلينا القونا جلوسا الى المائدة ، ولكن
المائدة لم يكن عليها شئ ، ولم يكن بيدو علينا أثر من آثار الغارة التى

شهدها الطيب ووصفها لهم على التحقيق ، فنهضنا لاستقبالهم في وقار وأبهة ورحبنا بهم وانطلقنا نتحدث معهم ونستخبرهم عن جدة والمطر الذي سمعنا به . وهم يحسبوننا بعيونهم ويستدرجوننا ، ولكن هيهات ! فانخدعوا وشكروا فيما رواه الطيب لهم

وكانت السماء قد جادهم منها هاضب سحاب . وامطرهم كما لم تمطرهم منذ أربعين عاما على قولهم . فقلت : « اتوذبالله » فقال أحدهم : « بل حمداً لله وشكراً »

واستبشروا بنا ونفألوا خيراً بقدمنا . وأنساهم السرور بالمطر هول ما سمعوا عن كراتنا على الطعام . وأشرق وجوههم بعد شحوب وتفتحت نفوسهم لنا بعد أن كاد يقبضها الدكتور عنا بما صورنا لهم . وانحدرنا الى الزوارق البخارية بين عبارات الترحيب والتأهيل الصادقة . وكان جارى فى الزورق أميراً نجدياً محرماً وفى يمينه بندقية ، فلم أرتح الى جيرتها وقربها من صدغى ، فقلت له فجأة :

« هذا فلان يسلم عليك »

فاضطر أن ينقل البندقية الى يسراه ليصافح صاحبي ولصقت به حتى لا أدع مكانا تعود اليه اذا فكر فى تحويلها الى حيث كانت . ولو أن الزورق سار فى خط مستقيم الى « الرصيف » لبلغناه فى ثلاث دقائق ، ولكنه اضطر أن يدور بنا حول الميناء فقطعنا

المسافة في خمس وعشرين دقيقة ، لأن مدخل الميناء مكتظ بالصخور والشعاب الحادة التي تقطع الحديد كالسيف . وقد فكرت الحكومة في اصلاح الميناء فخطر لها على ما علمت أحد أمرين أن تطهرها وتعمقها ، وهذا باهظ التكاليف ، أو أن تبرز بالميناء فوق الصخور وهذا أيسر وأقل كلفة . وهناك رأى ثالث سمعت به ولا أدري الى أى حد ينظرون اليه على انه اقتراح جدى ، وهو أن تبني الى جوار جدة مدينة جديدة على البحر يكون ساحلها أسهل وأخلى من الوعور ، فان انشاء مدينة جديدة أيسر وأقل نفقة وتعبا من اصلاح مدينة قديمة تهدمها شيئا فشيئا واقامتها من جديد على مقتضى مطالب العصر فضلا عن اصلاح الميناء وهو وحده مشكل . وكان يستقبلنا على الرصيف قائم مقام جدة الشيخ عبد الله رضا الزينلى ولقيف من الأعيان ، وبيأنى الكلام عليه فيما بعد فصعد بنا الى بناء فيه موظفو الميناء وجلس معنا فى التمررة الى أن قرب الزورق الثانى فاعتذر وخف الى استقباله . وتركنا مع المستر فيلبي وحقى افندى سكرتير القنصلية المصرية وفريق من الأعيان ولم يكن لهم جميعا حديث الا هذا المطر العجيب التى سبقنا وكانت تحيتمهم لنا «جثم بالغيث» . ولهم العذر ، فان بلادهم صحراء جرداء ليس فيها نهر أو جدول واحد ، واعتمادهم فى معاشهم على المطر والآبار ، فاما المطر فلا سلطان لهم عليه . وأمره بيد الله

وأما الآبار فقد كان عددها كبيراً وكانت العناية بها شديدة ، ولكن
الأتراك لما اضطروا الى الانسحاب من بلادهم في إبان الحرب
العظمى ، خربوا أكثرها حتى لحقت معالم عدد ليس بالقليل منها ،
وعلى أن الآبار مهما كثرت لا تسد حاجات البلاد ، لأنها تجف
وتتشف ، ومن هنا فكرت الحكومة السعودية في الآبار
الارتوازية وفي استخدام الآلات الحديثة لاستنباط الماء من
جوف الأرض ، واستوردت عدداً منها واتخذتها بالفعل في المدينة
ومكة ، وهذا خير ما يسعها الى الآن ، مع انعناية بالعيون وتعهدتها
بالاصلاح .

وليس في جدة فنادق ينزل فيها القاصدون اليها ، وإنما ينزل
الناس في بيوت الأهالي ، فمن شاء استأجر منزلاً بأسره ، ومن كان
لا يسعه ذلك قنع بغرفة مؤثثة ، على مثال « البنسيون » في مصر
مع فزوق طبيعية . أما نحن فكنا ضيوفاً على الحكومة ، وكان
العزم أن ينزلونا جميعاً في بيت واحد ولكن الأعيان تراحموا علينا
فقسمونا ثلاث فرق . واحدة في بيت الشيخ محمد نصيف وهو
من وجوه جدة وكبار تجارها وأصله مصرى وله مكتبة خاصة
هى أكبر مثيلاتها في الحجاز ، وفي داره ينزل على ما سمعنا جلالة
الملك ، عبد العزيز حين يكون في جدة . والفرقة الثانية في بيت
الشيخ الفضل ، وهو كاسمه من أهل الفضل والوجاهة ، والباقون

سته كان من حسن حظي أني أحدهم ، نزلوا في دار حسين أفندي العويني ، وهو شاب سوري الأصل نزح الى جدة لاسباب قومية واشتغل فيها بتجارة واسعة ربيحة ، وسيجيء عليه كلام .

ولم نكد نستقر في بيوتنا حتى قيل لنا : الى بيت القائمقام ، فنهضنا وركبنا السيارات الخاصة التي أفردت لنا ، وذهبنا نخوض بها شوارع جدة ، وأقول نخوض ، وأنا أعني ما أقول ؛ فقد خيل إلى أني في البندقية وأنا أحوج الى القوارب والزوارق - أو الجوندولا - منا الى السيارات . وكانت العجلات تغوص في الماء الى النصف . ولشد ما عجبت حين نظرت فاذا سائق السيارة صبي لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره . نخفت أن يقلبنا في الأوحال أو يدخل بنا الخوانيت أو يحاول أن يصعد الحائط بالسيارة . ولكنه كان حاذقا وكان كأنه يرى الطريق تحت الماء فيجنب الحفر ويتقى أن يرجنا . هذا على أن رأسه لم يكن ظاهراً لنا لصغر جسمه ، فلا أدري كيف كان يبصر الطريق ، وكأني به قد حفظه عن ظهر قلب فليس يحتاج أن ينظر بعينه . وكان بارعا في محاورة الماء والروغان من الأوحال والمهابط ، فلم يسعني إلا أن أسأله :

« هل تعرف الطريق الى مكة ؟ »

فقال : « أي نعم . متى تذهبون ان شاء الله ! »

قلت « وفصيح أيضاً ! » ورقص قلبي إعجابا بمهارته وذلاقة لسانه

وحدثتني النفس أن أخطب ثلاثة أو أربعة من أمثاله أخفيهم في حقيقتي وأعود بهم الى مصر ، فما رأيت مثل براعتهم وخفتهم ونشاطهم .

واستقبلنا القائم مقام على باب داره ، وتلكأت ادير عيني في البيت من الخارج فارتد الى وتناول ذراعى ومضى يصعد بي السلم ، وهو شيخ بلغ التسعين أو أربى عليها ، وأنا شاب لم أبلغ الأربعين ، ومع ذلك كان يثب على السلم وأنا أرفع نفسى بجهد واضح ، وصعود السلم فى البيوت الحجازية عمل شاق ، لان الدرجات عالية جداً . والبعض أعلى من بعض واضيق ، - وبعضها طولى او أقل قليلا - الى اننى ، وقد قلت وانا الهث بعدان بلغنا الدور الثالث حيث حجرة الاستقبال . لقد نجحت فى الصعود . ففى وسعى الآن ان اشترك فى الالعاب الاولمبية . ولم أكن ادرى الى تلك الساعة ان الهبوط أشق بفضل هذا الارتفاع الذى يؤثره للسالم . وان النزول اذا لم يحذر خلىق ان يهبطها مدحرجا عليها . وقد وجدت بالتجربة ان آمن طريقة للصعود هى الزحف على اليدين والرجلين . واستغربت كثرة الابواب للبيت الواحد ، وتعدد السالم ، فقد تبكون صاعداً فى وديعة الله وحفظه ، واذا امامك سلمان يذهب كل منهما فى ناحية فلا تدري ايها تأخذ : هذا او ذاك ؟ وخطر لى فى اول الامر ان سلما يودى الى حجرات الرجال ، وان

الآخر يفضى الى مساكن السيدات ، ولكن خطر لى ايضاً ان الاكثار من السلام المضلة والأبواب المحيرة ، قد يكون اثراً من ايام القلق وعدم الاطمئنان ، ايام كان الناس يهاجمون فى دورهم على غرة ، و يكر عليهم المعتدون وهم آمنون فى سربهم فلا يبعدان يكون الناس قد آثروا فى الأصل هذا الطراز المحير ليتسنى لهم ان يجدوا لهم ولدويهم مخرجاً او مهرباً اذا اقتحم عليهم الدار عدو . اولعل الخاطر الأول هو الأصح فما ادرى ولا وجدت من يدرى . ومهما يكن من ذلك فان الدار هناك داران على الحقيقة . وهى تبتدىء واحدة ثم تتشعب وتتعدد . ولا بد لهذا من حكمة خفيت على . اما السلام فلا حكمة لارتفاع درجاتها الى هذا الحد المرهق الا ان تكون حكمة التزهيد فى مكاببتها مرة ثانية . وما اكثر ما كان يخيل الى ، اذ نزل من احد البيوت ، اننا نهبط من سلم غير الذى صعدنا عليه ، حتى خطر لى ان ارسم بالقلم علامات على الجدران للتثبت وقطع الشك باليقين .

وبيت القائم مقام النموذج حسن لغيره من الدور التى رأيناها مع تفاوت بينها فى السعة ؛ وطرازها جميعاً شرقى عتيق ، واقرب ما يشبهه فى مصر البنى القديمة فى احيائنا الوطنية الصميمة من مثل الجمالية والخرنفس . وللبيت بوابة تفتح وتغلق وتغلق اكثر مما تفتح . وفيها باب صغير يسمونه فى مصر ، الخوخة ، ثم الفناء فالسلم الذى

وصفناه لك ، ثم طبقات يغلب ان تكون اثنتين او ثلاثا ، وحجر الاستقبال فى الطبقة العليا ؛ وغرف المائدة فى التى تحتها ، وقد يجتمعان فى طبقة واحدة فتفرد الأخرى للنوم ، والأثاث فاخر والذوق فيه سليم ، ليس فيه ذلك البذخ الذى ينم عن الخيلاء والذى هو اشبه « بالاعلان » ولا تلك الكزازة التى تقبض النفس وتصد القلب . وكرم العربى ليس ككرم سواه فهو يكرمك ويبذل لك كل ما يدخل فى طوقه بل فوق ما فى مقدوره ، ثم كأن الذى يصنع هذا سواه ؛ من فرط السكون والوداعة وقلة التظاهر . وقد كنت كلما دخلت بيتاً يختلط على الأمر ، فأحسبه بيت رجل آخر غير الذى اعرف اننا مدعوون عنده ، ذلك ان مضيفك لا يشغل عليك بالحفاوة ولا ينفرد بتحيتك ولا يبرز نفسه او يؤكد وجوده ، ولا تكاد تستقر فى مجلسك حتى يشيع فى نفسك الشعور بعدم الكلفة وبانتفاء القيود وبأن حريرتك فى حديثك وجاستك وفيها تشتهى نفسك ، غير محدودة . و كان القائم مقام على سنه وتقدمه وسمته وابهته يخف الى « الشيشة » ويجثو حيا لها ليصاحبها او يصنع فيها مالا أدرى فلست من هوانها ، و كان الواحد منا يهم بأن ينهض ليصده عن ذلك تنزيهاً له عن هذه الخدمة ، ولكن شيئاً فى عينيه كان يقعد بنا ويغلنا عن الحركة . ولم أر فى حياتى وجهاً ناطقاً بطيب الخيم وأريحية النفس وبالعطف الشامل والحب

الذى يريد ان يفيض على العالم كوجه هذا الرجل ، وقد انصرفنا من بيته بعد أول زيارة وقد عشقناه وشغفنا به ولهجنا بذكره ، فلما قال لنا المستر فيلي . إن القلوب مجمعة على حب هذا الرجل واحترامه لم نستغرب فكأننا كنا نعرف هذا من قبل . وقد كان قائم مقام في عهد الحسين وابنه على المعزولين ، فلما جاء ابن سعود أقره في منصبه كما أقر كثيرين غيره كراهة منه للتبديل والتغيير اللذين لا معنى لهما ولا دافع اليهما سوى الهوى ، وليس كل ما يروع المرء من انقائمه مقام دمايته وسجاجة خلقه ، فان نشاطه وحيويته شيء عجيب ، لا لمن كان في مثل سنه العالية بل لأي انسان في أي سن ، ثم هو الى هذا واسع الدراية محيط بأخبار الأمم وسياساتها ، عارف ببنائها ومسااعيها لطيف الحديث حلوا المحضر ، بزبد وقاراً قليل من الصمم ؛ وسنه ابدأ ضاحكة وعينه براءة ، فما اشوقني لأن اراه وهو ثائر الغضب . وكان قد اعد لنا غداء ولكننا قلبناه عشاء فقيل . « حسن . الساعة الأولى اذا »

فملت الى جاري وقلت .

« سنموت هنا جوعاً »

فقال بلمجة الفزع . « كيف ؟ لماذا ؟ »

قلت . « الم تسمع ؟ العشاء الساعة الأولى . نحن الآن في

الساعة الأولى بعد الظهر فسننتظر اثنتي عشرة ساعة او أكثر حتى

نأكل مرة أخرى . هذا صيام ولسنا في رمضان وأنا محتج »
قال . « مهلا مهلا ؟ انها الساعة الأولى بالحساب الشرقى اى
بعد المغرب بساعة »

فاقترح واحد ان نصلح ساعاتنا وان نجريها على الحساب
الشرقى ، فسألته كيف نفعل ؟

قال . « تعتبر ان الشمس تغيب الساعة السادسة - صيفا او
شتاء . هكذا يفعلون هنا . المغيب الساعة السادسة (افرجية)
بلا تغيير على مدار السنة وعلى هذا فأجر حسابك »

فحرت لأن الشمس تغرب فى الوقت الذى تشاء . لا فى
الساعة السادسة كما يريدونها أهل الحجاز ، وكانت ونحن هناك
تستحسن ان تغيب فيما بين الخامسة والسادسة ، وهى فى الصيف
تتلكأ احيانا الى السابعة فلم ادر ماذا أصنع ؟ اتكون الشمس
غاربة واقول انا - مجارة لساعات الحجاز - انها لا تزال طالعة ؟
ثم كيف اوفق بين رقم الساعة والوقت كما يبدو لعينى ؟ الحق ان هذه
كانت عقدة .

ولما صرنا فى بيوتنا قلنا نزور القنصلية ، ونؤدى واجبنا ونحى
بلادنا فيها ، وكان المطر قد عاد ينهمر ، فسألنا حسين افندى العوينى
« هل القنصلية بعيدة من هنا ؟ »

قال . « لا . (مخطوطة) ليست بعيدة ولكن المطر شديد والطريق

« وحوال »

وقام الى التليفون - اوالهاتف كما يسمونه أحياناً - ليدعو سيارات لتقلنا الى القنصلية وليس للتليفونات او للهواتف ارقام تتميز بها ل عليك ان تدق الجرس فيجيبك « المركز » - وهو يقابل عندنا لسنترال - فتطلب منه ان يصل ما بينك وبين فلان في بيته او دكانه ومكتبه او عيادته - كما تشاء و يبطىء عليك العامل فتناديه : « يا فلان اذا جرى ؟ اعطنى بيت فلان واصنع معروفاً ذلك انك تعرف . مامل التليفون - لاعاملته - كما يعرفك . وكان المطر قد أفسد سلاك التليفون وعطل المخابرات ، فوقف حسين افندى العوينى ساعة يعالج الكلام - ساعة كاملة بلا ملل او ضجر ومن غير ان يفكر لحظة فى الجلوس او الاستراحة

واخيراً بعث بخادمه فجاءت السيارات وركبناها وصاح حسين افندى بالسائقين .

« الى القنصلية المصرية »

فدارت السيارات وتحولت امام البيت ، ثم جرت امتاراً ووقفت وقيل . « انزلوا ! تفضلوا ! »

قلت . « ماذا ؟ هل اصاب السيارات عطب او تلف ؟ » قالوا « بل وصلنا ! »

وصلنا ؟ نعم . فما كان بين البيت والقنصلية التى ركبنا اليها

بعد لآى ، سوى عشرة امتار !

وقلت لما صارت الساعة السادسة والنصف (افرنجى)
« الآن فانهضوا الى العشاء فى بيت القائمقام . »

فقليل . بل لا يزال الوقت فسيحاً ولم تستوف الساعة الاولى دقائقها
قلت . ولكنها فعلت وقد غربت الشمس منذ ساعة تماما .
قالوا . كلا لم تغرب إلا منذ نصف ساعة .

فأسلمت أمرى لله ولساعات الحجاز التى لاتعبأ بنهار او ليل
والتى يجرى الزمن على وجهها كما لا يجرى فى بلادنا على وجوه
ساعاتنا .

وليس فى نيتى ان أصف كل ولية حضرتها او دار دخلتها
فان هذا لا آخر له ، فقد كنا تتغدى فى بيت و نتناول الشاى
فى بيت والعشاء فى ثالث ، وربما تغدينا فى جدة وتعشينا فى
مكة ، او بالعكس . ولكنى سأذكر القليل الذى يدل على
الكثير وينبئ عنه . فقد سمعت ان فريقاً من المصريين
لا يصدقون ان أهل الحجاز يعرفون الأكل على الطريقة الحديثة
فلهؤلاء اقول . ان الحجاز ليس مجهلاً من مجاهل آسيا او
أفريقيا ؛ وانه وطن الاسلام واليه يحج المسلمون من اقاصى

الأرض وأدانيها وأنه بلاد متحضرة سوى أنها فقيرة ، والفقر لا يمنع الأناقة ولا يحول دون التهذيب ، ومن الغرور الذي لا يشرف صاحبه أن يتصور المرء أن الحجاز ، لأنه على البحر الأحمر ولأنه ليس مصيفاً أو مشقاً للمتفرجين منا وبغاة المراقص وطلاب الملاهي . يجب من أجل ذلك أن يكون مستوحشاً وعلى الفطرة الأولى . وليس في الحجاز فنادق أو مطاعم عامة . ولكننا دعينا في كل مكان حتى في قلب الصحراء ونحت الخيام - إلى موائد على الطريقة الغربية عليها من الآكال مايندر أن تقع عليه العين أو يذوقه اللسان حتى في مصر المتحضرة .

وهم لا يراعون في الجلوس إلى الموائد ترتيباً معيناً . وكانوا معنا على الأقل أحذق وأدق مجاملة من أن يتوخوا ترتيباً . وكان من شاء يجلس حيث يشاء . حتى لا يشعر أن غيره مفضل عليه أو مقرب دونه أو مختص بإيثار . والقوم في الحجاز لا يأكلون سوى مرتين في الأربع وعشرين ساعة : مرة حوالى الساعة العاشرة والثانية حوالى الساعة الرابعة أو الخامسة . وأحسب أن جو البلاد هو الذى افتضى هذا التخفيف . ولكنهم توخوا مثل عاداتنا في مصر من أجلنا . وغيروا مألوفهم وجروا على مألوفنا .

والأطعمة التى تناولناها فيها صنعة حسنة وذوق يجمع بين الإسلاميين العربى والتركى . وقد يحدث أن يقدم لك بعد بضعة

ألوان طعام حلو فتحسب أنك قد قاربت النهاية ويسرك ذلك فرارا من كظ المعدة بألوان عدة لا آخر لها وإذا بهم بعد الحلوى يكرون الى اللحوم والخضر وما الى ذلك على نحو ما كان يجرى هنا في مصر في الأعراس على الطريقة التركية القديمة .

وأحب أن أعين القارئ على تصور حالة جدة وعمل البلدية فيها . فأقول ان الطرق غير مرصوفة كما هي في مصر ولكنها نظيفة على الجملة ، وقد أصارها المطر بركا وبحيرات ، وهو مطر ملاء صهاريج الشجر كلها ، ومن بين هذه الصهاريج واحد سعة بحسابهم - مائتان وأربعون الف « صفيحة » فإذا اعتبرت أن « القربة » تعادل اربع « صفائح » كانت سعة الصهاريج ستين الف قربة ، وقد قيل لى ان الماء الذى فى الصهاريج يكفى موسم الحج ، وانما ذكرت الصهاريج ودثلت لسعتها ليتسنى للقارئ ان يكون لنفسه فكرة عن المطر وما صنع ، فقد هدم بيوتا وقوض سقف بعض الأسواق ، ولم يبق بيت لم يقطر الماء من سقفه ، والبنى هناك ضعيفة ، وقد قضينا الليلة الأولى فى جدة فأصبحنا قد انقطع المطر فانطلق عمال البلدية ينزحون الماء ويجرفون لأوحال ، فلما جاء العصر عادت الطرق نظيفة مأمونة . واحسب أنهم ضاعفوا الهمة من اجلنا ، ولكنه نشاط على كل حال .

والأغنياء هناك لا يدعون الفتر ولا يكتمون ما لهم وان كانوا لا يضايقون الناس بمظاهر البذخ . والتجارة سوقها رابحة

مع الغرب والشرق . والأحاديت صريحة والألسنة طليقة ، وفي هذا دلالة على الاطمئنان . وقد كان الناس على ما علمت في العهد السابق يخفون اموالهم و يتظاهرون بالمتربة ورقة الحال خوفا من الابتزاز او الاقتراض الذي هو في حكم الاغتصاب والمصادرة . اما الآن فيقول لي بعض الأصدقاء : ان الحكومة في آخر العام قد تقفر خزائنها فتحتاج الى المال فتقترض من الأعيان حتى اذا جاء موسم الحج ردت اليهم ما اقترضوها بلا ربا

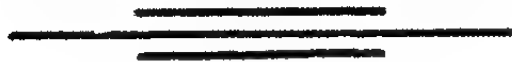
وقد سألنا — في طريقنا الى مكة — سائق السياره وهو شاب حدثنا انه كان احد افراد الفرقة الموسيقية في جيش الحسين : عن الفرق بين العهدين فكان جوابه ان الآمن مستتب على احسن حال وانه ما من احد يجرؤ ان يسرق او يمد يده الى شيء في الطريق

فقلنا له . وای العهدين خير

فقال . « لكل زمان دولة ورجال »

وصرفنا السرور بتمثله بالشعر والتعليق على ذلك عن سؤاله

عما يعنى .



بين جدة ومكة

الأرض - في جدة - دائرة . هذه حقيقة لم يسعنى ، بعد يوم واحد ، إلا أن اسلم بها وأقطع بصحتها . وقد تكون الأرض هناك كروية أيضاً - أو كرية ، فما أدري أيهما الذى لا غبار عليه - بل هى كروية أو كرية فى بعض المواضع ولا سيما فى الشوارع ولها محاور حقيقية لا خيالية وإن كانت لا تدور عليها . ولكنها دائرة على التحقيق ، اذا كان هناك شك فى كرويتها ، على الأقل كلها . وما أسرع ما فطنت إلى هذه الحقيقة الجغرافية الخاصة فقد كنا مدعوين الى الشاى فى وزارة الخارجية . فلما دنا الموعد أشرفت من النافذة فلم أر السيارات ، فرددت البصر الى التليفون فاذا هو لا يزال فى مكانه ، ولكن صاحب الدار لم يكن حاضراً ، والتليفون فى الحجاز يتطلب مهارة كانت تنقصنا ، ويحتاج الى معارف لم يتسع الوقت للاحاطة بها . وكان الخادم قريباً ولكنى استحييت أن أطلب ، معونته لئلا يتوهمنا بعض الهمج من افريقتنا . فسألت الله العون ومضيت إلى التليفون ودققت الجرس مرة . فلم يجبنى أحد . فدققته ثانية فلم يعبأ بي مخلوق ، فهززت « الشنكل »

وأنا يائس ، أقول لنفسي أنت من لا يحفل الجرس أولى به ألا
يكترث «للشنكل» . وعادت الدق والهز مرات ، ثم وضعت السماعة
وجلست الى جانبه .

فقال لي أحد الحاضرين :

« لم سكت ؟ دق له ! »

قلت : « أأظل أدق الى المغرب ؟ »

قال . « لاسيدى . دق الجرس وناده ! »

فراقنى هذا ونهضت مرة أخرى وعدت الى الجرس أدقه واقول :

« يا أخانا ! يا حبيبي ! ياسيدى ونور عيني وتاج راسى ! »

فلم يعجبه الفصيح الصحيح من اللغة ، فقلت أخاطبه بالعامية
لعله لها أفهم .

« يا أخينا ! أنت يا شيخ انت ! ياللى جوه ! نبحت حسى

ووجعت قلبي . رد يا أخى بقا ، الله يقطعك ! »

فلم تنفع هذه الرقية ، وهممت بالقعود مرة أخرى فقال صاحبي :

« لالا . ناده باسمه يا أخى ! »

قلت : « حسن . وهل مفروض فى المصرى الذى يأتى

الى جدة أن يعرف اسم عامل التليفون ؟ لا بأس ! » ووضعت فمى

على البوق وجعلت أصيح بما خطر لى من الأسماء لعل واحداً منها
يوافق الصحيح .

« يا محمد . يا ابا بكر . يا عمر . يا عثمان . يا علي . يا معاوية .
(لزملائي : يظهر انه أعجمي) يا ناصر خان . يا أزدشير . يا شترية .
انطق قبحك الله ! (هل فيكم من يحضره اسم آخر فقد أطار هذا
اللعين محفوظي ؟ لا بأس) يا بطليموس ... »

وهنا قاطعني صاحبي وانتزع الساعة مني ووقف يقول

« يا مركز . . . يا مركز . . . »

فسأله « هل هذا اسمه ؟ »

فلم يعبأ بي وهضى يقول .

« أجول لك . يا مركز . أعطني القناعة . نعم القناعة . رجاء »

فوصله بشركة القناعة للسيارات .

ولكني لم أركب سيارة ، لأن الجهد العقيم الذي بذلته أمام
آلة التليفون أحوجني إلى الرياضة فقلت أتمشى إلى الخارجية فهي
قريبة منا . فوافقني اثنان وخرجنا وسرنا على بركة الله نميل مع
الطريق حيث يميل ، ويصف بعضنا لبعض ما شاهد إلى الآن
وماذا كان وقع ذلك في نفسه ، وطال الأمر علينا وخيل إلى أننا
ندور ونعود إلى حيث كنا ، فخطر لي أن أسأل لنهتدي ، فانتظرت
حتى لقينا فتى فقلت له :

« هل لك أن تدلنا على وزارة الخارجية ؟ »

فخملق في وجهي وقال .

« إيش تقول ؟ »

قلت : « وزارة الخارجية التى فيها حضرة صاحب المعالى
الوزير ف... »

فجذبني أحد الزمبلين وقال .

« يا أخى انت فين ؟ »

فغاضبني ذلك واستثار عنادى فقلت :

« أسكت أنت من فضلك . قل لى يا صاحبي . صف لى الطريق »

فقال كلاما مغمما قدرت انه الوصف الذى أطلبه وأشار بيده

فقلت لصاحبي .

« هيا بنا . لقد عرفت منه الطريق »

فقال أحد الرفيقين :

« ولكن ماذا قال لك ؟ »

قلت : « إن ما قاله لى لا يهم . ويكفيك أنى فهمت مراده . »

فقال : « ليتنى على يقين من ذلك . فان الواقع أننا نسير فى

دائرة . وقد رأيت هذا المسجد أربع مرات على الأقل . »

فأكدت له أن هذا كذب لا يليق ولا يشرف بلاده التى

يمثلها هنا ، وان كان لم يعد الحقيقه فيما قال . وصار لا بد من

اجتناب الرجوع الى هذا الشارع اذا أردت أن لا يشمت بي

صاحبي . فملت بهما الى طريق جديد لم تضرب فيه من قبل واذا

بنا بعد ثلاث دقائق نعود إلى المسجد .
فقال صاحبي بلمهجة الشامت المنتقم :
« ماقولك الآن ؟ أليس هذا هو المسجد بعينه ؟ هذه خامس
مرة أراه في ثلث ساعة »
قلت : « محال . أنه ليس أكثر من المساجد في هذه البلاد
وهي جميعاً متشابهة » .

واسكته بهذه المغالطة وعمدت الى أول رجل صادفنا بعد
ذلك فسألته عن الطريق الى وزارة الخارجية ، فصاح بي صاحبي :
« مادمت تقول « وزارة الخارجية » فلن ينهم كلامك أحد .
يا أختي أنت في الحجاز لا في مصر »

وهكذا ظللنا نسأل والناس لا يفهمون عنا وأخيراً يشيرون
بايديهم فنمضى ونكر الى حيث بدأنا . فاقترعت بحقيقتين : أولاهما
أن الارض هنا دائرة في كل ناحية . وقد أسلفت القول في ذلك :
والثانية أن على من يسأل الناس عن الطريق أن لا يسير الى حيث
يشيرون .

والمدهش أننا مررنا بالخارجية وكنا نسأل الناس عنها ونحن
واقفون أمام بابها ! وفي آخر مرة كنا على افريزها ، لأن سيارة
كانت مقبلة نخفنا أن ترشنا بمجلائها بالوحد فصعدنا فوق الافريز
لنتفقد ذلك واذا بها تقف وينزل منها بعض زملائنا .

وقد رأيت « برج بيزا » المائل ، من نافذة وزارة الخارجية أو دارها أو لا أدري ماذا يسمونها هناك . وكنا نتناول الشاي جماعات دجماعات على موائد صغيرة ، وكنت قريباً من النافذة فنظرت فإذا مأذنة مائلة جداً . فأطلمت النظر اليها وأنا أتوقع ان تنقض . فقال لي جارى :

« ماذا يروقلك ؟ »

قلت : « ألا ترى هذه المأذنة المائلة ؟ إن أمرها عجيب . ولا أدري ماذا يمنعها أن تسقط ؟ لعلها لا تريد أن تزعجنا »

فنظر جارى وعجب ، ومن حقه ذلك ، فقد كان انحرافها شديداً ، فسألنا واحداً من أهل الحجاز عنها فابتسم وتنحنح وقال كلاماً لا يقنع ، واعتذر بأن المباني في الحجاز ليست متينة أو حسنة جميلة كمباني مصر ، فبينما له أن المتانة والجمال لا شأن لهما ولا قيمة ، وأن المسألة أن هذه المأذنة لا يمكن أن تظل ذاهبة في الهواء لأن مسقطها خارج القاعدة ، فإذا كانت مع ذلك ستبقى قائمة فتلك معجزة ولا شك ، ومن حق الحجاز حينئذ أن يباهى بها برج بيزا المائل بل أن يدل بها عليه .

ولما صرنا في الطريق مرة أخرى رفعت عيني الى المأذنة فإذا هي مستقيمة لا ميل فيها ولا انحراف ، فرجعت أعدو الى الخارجية فإذا هي تبدو من النافذة مائلة ، فأنحدرت الى الشارع وأجلت

النظر في بناء الخارجية فلم أر شيئاً يلفت النظر فحرت ، وأخيراً بعد أن حاورتني المأذنة وخايلتني حتى كاد يطير رأسي حملت اللغز . ذلك أن جدران الغرف غير متساوية الارتفاع فأرضها مائلة ؛ فإذا جلسنا فيها بدت لنا الأشياء منحرفة .

وخرجنا يوماً نتنزه على امتداد الشاطئ فيما وراء جدة ، ولجدة سور قديم لا خير فيه إذا كان المراد به الحماية ، وكان هناك - في السور - باب كبير للدخول والخروج ، ومنه يأخذ المرء أحد الطريقين إلى مكة أو المدينة ، فلما جاءت الحكومة السعودية رأَت أن باباً واحداً لا يكفي ، ففتحت بوابتين كبيرتين : واحدة للدخول والثانية للخروج ، وأقامت بينهما مخفراً يسأل الرائح والغادي ويرقب الحركة بينهما ، والأمر تافه لا يستحق الذكر ، ولكنه بعض التنظيم الذي أدخلته الحكومة السعودية وارتاح به الناس ، وهم هناك يضيفون هذا إلى أمثاله ويتخذون من ذلك كله شواهد على اتجاه النية نحو الإصلاح ، بقدر المستطاع .

ورأينا على مسافة نصف ساعة من جدة بيوتا بعضها من الشعر ، والبعض جدرانها - إن صحت التسمية - من جوانب صفائح الغاز ، وسقفها كذلك من الخيش أو هذه الصفائح ، وبعض البيوت من اللبن ، وخلال هذه البيوت الغنم والجمال ، وحولها

الكلاب ، ولكن المطر هدم البيوت المبنية وأبقى على الشعر والصفائح . وقد وقفنا تتأمل هذه البيوت المتقوضه وخيل الى وأنا أصدق فيها أنى صرت للشعر العربى أحسن فهماً . بعد أن رأيت بعينى ما الطلول الدوارس ، وهو احساس ظل يلزمنى وأنا فى الحجاز فكلماً رأيت منظرأ من الجبال أو السهول والأودية أو الكشبان أو المراعى أو الدور أو الخيام ، زدت شعوراً بصدق تصوير العرب لحياتهم فى أشعارهم ، ولم أستغرب شيئاً مما كنت أمله واستثقله من لجاجتهم فى وصف الطلول والاسفار والرواحل والولع بذلك وإثاره وتقديمه ، وصار لهذا وما اليه معنى جديد عندى ومساع الى نفسى ، وقد كنت حين أطلع شعر العرب - قدماء أو مولدين - أتخطى هذه الأوصاف اذ كنت لأجد فيها متعة ولا أراها تنقل لى صورة لها قيمتها فى نظرى ، فالآن أعود الى هذا الشعر الذى كنت لأطبقه فأرى الحياة تدب فيه وتفيض منه ، وانما أعنى شعر القـدماء لا المقلدين من المولدين أو المحـدثين الذين يقولون على السماع والمحاكاة

وفى السهل الواقع شرق جدة ثكنة للجنود واسعة رحيبة ، ومركز للاسلكى وحظيرة للطيارات . وليس فى هذا كله ما يستوقف المرء ، فما منه شىء غريب ، ولكن هناك أيضاً على مقربة من الثكنة فضاء رحيب مسور سد بابـه بالحديد ، وكان الناس يفدون

اليه زائر بن بل حاجين ، لأن فيه على المشهور هناك قبر حواء ،
وقد هدمه السعوديون ولم يبقوا من قبابه شيئاً ، ومنعوا الناس أن
يزوروه . وحدثني بعض من شهدود قبل تقويضه أن طول القبر
أربعون قدماً ، وأنه كانت هناك عدة قباب صغيرة على رأسها
وصدرها الى آخر جسمها ، وكان الاعتقاد السائد أن أمنا حواء
بهذا الطول ، ولهذا مدوا قبرها وذهبوا به طولا وعرضاً ، فاذا صح
هذا ، فقد كانت أمنا إذا مهولة ، ولا عجب أن تلد كل هذه الخلائق
وأن تكون أم هذه الأناسى كلها في الشرق والغرب ، فليت من
يدري كيف كان آدم ؟ لاشك أنه كان الخل وأهول ، ومع
طولها وعرضهما خدعتهما الحية وأخرجتهما من الجنة . فليست
العبرة اذن بالطول ؛ وفي هذا عزاء لى عن قصر قامتى ! .

ولم أر فى الحجاز امرأة ولا بائعاً متجولاً ولا شيخاً هماً يقوم
على الراحتين ، ولا جنازة ميت ، فأما المرأة فلم استغرب الحجاب
المضروب عليها ، فنحن فى مصر لا يزال منا من يحجب المرأة
ويوصد عليها الأبواب . وأما الباعة المتجولون فلا حاجة بأحد
اليهم فى مدينة صغيرة لم تتباعد أطرافها ولم تفش فيها المدنية ولا
يزال الزمن يدور فيها متمهلاً متباطئاً . ولعلنى لم أر مقعداً أوسطيحاً
أو كسيحاً لأننى لم ابغهم حيث يكونون ، ولكنهم على كل حال
لا يرون فى الطرقات وعلى ابواب المساجد وافاريز الشوارع .

ولكنى استغربت ان أقضى ستة ايام فى الحجاز فلا تقع عبنى على جنازة ميت ولا اسمع ان واحداً مل هذه العاجلة وآثر عليها الآجلة، ولا أدرى ماذا يغرى الناس هناك بالبقاء ويحبب اليهم الدنيا وهى بلاقع ، على حين يستطيعون ان ينتقلوا فى طرفه عين الى الفردوس وقصور وحوره وولدانه وانهاره من لبن وعسل وخمر ! ولقد اضطرت ان اسأل عن ذلك فضحك الرجل وربت لى كتفى وهم أن ينصرف عنى ، ولكنى تعلقت به وسألته .

« اصدقنى . هل أنتم تموتون فى سر كم ؟ »

قال : « فى سرنا ؟ ماذا تعنى ؟ »

قلت : « أعنى انكم تموتون أولاً تموتون »

قال : كيف لانموت ؟ ان الموت حق »

قلت . « لست اراه حقاً هنا »

قال . « استغفر الله العظيم . يا رجل ؟ »

قلت . « استغفر الله ألف مرة . ولكن لماذا لانموتون ؟ »

فقال مبتسماً . « هل تكره لنا الحياة ؟ »

قلت . « لا أكرهها لكم ، ولكنى أكره أن نموت دونكم . لماذا

يكون الموت حقاً علينا وحدنا ؟ »

وقد أبوا أن يموت منهم ولو واحد فقط ، ليقنعنى . حتى ذلك

الطبيب الذى كاد يقتلنى بمصلية ، لم تهن عليه نفسه ولو اكراما

لخاطربا أو في سبيل التدليل على صحة النظرية - فهي في الحجاز
نظرية فقط - القائلة أن الموت حق . كأن وظيفة الطبيب أن
يميت ولا يموت .

وسيد كرفي الحجاز دائما بأن عصاى قطعت، الطريق بين جدة
ومكة - قطعته ساعة كاملة لا تنقص دقيقة بل ولا ثانية ، و ردت
الناس من الجانبين ، ووقفهم صفيين من الناحيتين متقابلين على
أقدامهم الا من شاء أن يضرب في طريق آخر ويسير على نهج
جديد .

وشرح ذلك أنا في اليوم الثالث تغدنا عند الشيخ الطويل ،
صاحب شركة القماعة للسيارات ، وقد كان على عهد الملك حسين
مديرا للجهاز وكان صاحب مال وفير فأنى عليه الاقتراض منه ؛
فلم ينقذه الا انقراض حكم الحسين وابنه على ومجىء العهد السعودي
بالأمن والطمأنينة وحرية التجارة ، فاحر بالسيارات وعاد فوقف
على رجليه . وكان المقرر أن نركب الى مكة بعد الغداء مباشرة ،
ولكن الأكل طال والألوان تعددت فنسينا مكة وذهلنا عن كل
شئ ، وأخيرا قمنا عن المائدة آسفين متلفتين متلصكين ، وذهبنا الى
بيوتنا نخلعنا ثيابنا ونضونا كل ما على أجسامنا ولففناها - أعنى
أجسامنا - في مشامل - كالبشاكير - غير مخيطة ، حتى اقدامنا

خلعنا احدىتها واعتضنا منها السباعيات ، وهى نعال لها سبعة
سيور من الجلد تدخل فى بعضها الاصابع ويلتف البعض حول
المفاصل ، ورمينا طرايشنا ، ثم جمعنا ثيابنا فى الحقائق وتوكلنا
على الله .

وركبنا سيارة لا أدرى من أى طراز هى ، وانما الذى أدرى بانها
كانت نفخة وجديدة ، وأنها لم نخرج إلا فى يومنا ذاك . وقلنا للسائق
سر على بركة الله وبقوة البنزين الذى خلقه الله ، واعلم اننا سنتعشى عند
سمو الامير فى قصر جلالة الملك باذن الله . وأن عليك أن تبلغنا مكة
قبل موعد هذا العشاء بوقت يكفى للطواف والسعى ثم ارتداء الثياب
فقال : « الله معنا . ان السيارة جديدة وليس فى وسعى أن
أسرع بها لئلا تتلف »

فقلنا . « فلتتأفف . فان موعد الأمير لا يمكن ارجاؤه »
وما زلنا به نلح عليه ونحاوره ونداوره حتى أطلقها ومضى
بسرعة خمسين كيلو . وجزنا أول محطة فى الطريق ومضينا نبغى
الثانية واذا به يطل ثم يقف ويلتفت الينا ويقول .
« حريق . انزلوا »

ففتحت الباب من ناحيتى وأسعرت فنزلت ، ويظهر أن عصاى
التي لم أعن بها من فرط الفزع ، سقطت الى الأرض ، وصار فى
وسعنا بعد أن بعدنا عن السيارة ان ننظر اليها وان نرى الدخان

صاعداً من بين عجلائها ، والسائق يهيل عليها الرمل عوضاً عن الماء فانقطع الدخان وشرع يعالجها ، وكانت سيارتان قد ادركتنا ونزل زملاؤنا ووقفنا نتحدث ، واقترح رياض الهندي المصور أن يرسمنا ونحن محرمون .

ولأطول . ركبنا السيارة واستأنفنا السير - على مهل . وأنسيت العصي لأن الخوف من احتراق السيارة صرفني عنها ، وجعلت وكدي طول الطريق أن أخرج وجهي من نافذة السيارة وانظر الى العجلة من ناحيتي وأن أشم . لعل دخانا صاعد فأنبه السائق . والطريق الى مكة طريقان واحد للسيارات وهو حسن ومكبوس بما نسميه « وابور الزلط » وقد رأينا (الوابور) يستريح عند سفح الجبل . والآخر للجمال والمشاة ، على يميننا ويسارنا . والجمال التي رأيتها صغيرة وهي أتبه بالبعران في بلادنا ، وأحسبها كذلك لضعف المرعى وقلة القوت . وهي تسير قوافل قوافل . وقد عددت خمسين جملاً في قافلة . وكانت تحمل بضائع شتى في الصناديق والاكياس أو الغرائر . وليس معها سوى طفل واحد هو كل حرس هذه القافلة المغربية

وليس أحلى ولا أفن من منظر الأطفال حين يحاولون ركوب الجمل . والطفل لا يترك الجمل حين يريد أن يصعد الى ظهره . وإنما يعمد اليه وهو سائر ويتعلق بذيله ويتخذ من هذا

لذيل حبلا أو سلما أو مرقاة مستعينا بقدميه بخطوبهما على نخدى
البعير كأنهما جداران ، ثم اذا هو فوقه . وأمتع من ذلك وأبعث
على الدهشة أن ترى بعيراً على سنامه رحل وعلى عسيبه - عظم
الذنب - طفل والعسيب منحدر وعظمته حادة فكيف يقعد عليها
الطفل وماذا يمسكه فوقها ؟ ساقاه يتقبض بهما على الجانبين .

وبلغنا الشميسة قبيل الغروب بدقائق - اذا اعتبرنا ساعتى
وهى بالحساب الغربى - وقبله بأكثر من نصف ساعة إذا اعتبرنا
أن الحجازيين يحتمون على الشمس أن تغيب فى الساعة السادسة
لا فى منتصفها . وهناك فى الشميسة استقبلنا وفد طويل عريض
من مكة جاء ليرحب بنا ويحتفى بمقدمنا ، وبينها نحن نتحدث دعى
مدير الشرطة أو لا أدرى من هو الى اتليفون ، فأستأذن
وذهب ثم عاد يسأل :

« هل لأحدكم عصى ؟ »

قلت « نعم انا لى عصا ولكنها والله فى السيارة . تركتها فيها .
لأنى لا أدرى هل يجوز أولاً يجوز أن يحمل المحرم عصا »
« قال : « ما أوصافها ؟ »

قلت : « وما شأنك أنت بالله ؟ هى عصى والسلام »

قال : « لا لا لا . لقد وجدت عصا فى الطريق قرب الرغامة
فقطعت على الناس السبيل »

فضحكت وقلت « أؤكد لك أن عصاي تحترم القانون ولا تخرج على النظام ولا تعرف قطع الطريق » فلم يجد حتى بابتسامة ، وضاعت على النكتة في هذا البلد الجاد. وقال : « ابحث عنها من فضلك فإن الطريق مقطوع لا أحد يروح ولا أحد يغدو »

فهرولت في مشاملي إلى السيارة فلم أجد العصى فعدت وقلت له : « هي عصاي قاطعة الطريق ، فاسمح لي أن أعتذر بالنيابة عنها » فمضى عني إلى التليفون ، وخفت أن يأخذوني بها ويحزوني بما صنعت فان للقوم هنا شريعة غير القانون المدني ، فعدوت وراءه وأسهرت اليه وهو يتكلم في التليفون :

« أذكر من فضلك أن الله تعالى يقول في كتابه المنزل » ولا تزر وازرة وزر أخزى .

فلم يزد على أن التفت الى وقال : « هل نردما الى جدة أو ندرلك بها في مكة »

فقلت : « لست أريدها والله فإنها فاجرة كما ترى . وأخشى أن

ينزو برأسها خاطر آخر ، أفلا يمكن دفنها في الرمال مثلا ؟ »

فقال للتليفون لالى : « أرسلها مع الشرطة الى الضيافة »

فصحت به : « لا لا . ردها الى جدة من فضلك فحسبي ما صنعت

فقال لمخاطبه في التليفون : « بل ردها الى بيت العويني في

جدة . رجاء »

ثم التفت الى وقال : « هيا بنا فقد تأخرتم »

»

ولست مبالغا فيما رويت عن عصاى وما صنعت ، فقد كنا فى الطريق اذا بلغنا محطة واحتاج السائق الى ماء يبرد به جوف هذه السيارة الذى يغلى ، نصيح بأحد الواقفين هات ماء »

فلا يتزحزح ولا يدنونا بل يقول وهو واقف مكانه :
« تفضل »

فينزل السائق ويحىء منه بما يريد . وقد سألنا عن سر هذه الجفوة وقلة الذوق فقليل لنا بل هو الخوف من أن يدنو الغريب من السيارة فيتفق لسوء الحظ أن يضيع شئ من الأدوات أو مما تحمل السيارة فيتهم الرجل بالسرقة . وجزاء السارق هناك قطع اليد ، وقد أمن ابن السعود الناس على أرواحهم وأموالهم بشيئين . بقطع يد السارق وما يسمونه التصبيحة .

فأما السرقة وقطع اليد فأمرهما ظاهر لا يحتاج الى بيان ، وقد قسا ابن السعود فى أول الأمر ليزجر اللصوص ، حتى لقد حكوا الى أن رجلا جاءه بكيس فيه بن وقال له . « هذا كيس بن وجدته فى الطريق »

فسأله : « ومن أدراك أن فيه بنا ؟ جسسته أوفتحته ونظرت

فيه ، ولو وجدت فيه مالا بدلا من البن لا خفيته ولم تظهره ولم تسع به الى . كلا ! حتى الجس لا يجوز . اقطعوا يده .

ومن أجل ذلك يقع الناس على الشئ في الطريق فلا يقربونه أبدا ، بل بلغ من ازدجارهم أنهم ربما مالوا الى طريق آخر غير الذى فيه هذا الشئ المطروح حتى يمر شرطى فيحمله ويبحت عن صاحبه ، أو يمرؤا هم بالشرطى فيبلغوه . واذا لم يقعوا على صاحبه نشروا في « أم القرى » اعلانا تحت عنوان « لقطات »

أما التصبيحة ، فشئ آخر . تكون هناك عشيرة ضربت بالسطو فينذرها ابن السعود مرة ثم أخرى وثالثة ، فان كفت وتركت الناس آمنين واستقامت على الهدى فيها والله الحمد ، والا همس في أذن واحد من قواد جيشه أن يصبحها فيذهب الرجل في فرقة من الجيش من غير أن يفضى الى احد بغايته ومقصده ، ويجنب في طريقه الى العشيرة مواضع الماء ، ويضرب بجيشه في الصحراء التي لا تطوها قدم ليظل أمره خافيا وغايته مكتومة ، ويقع على العشيرة في الفجر فيصلى بجيشه ثم يطلق عليها رجاله فيصبحونها وهم يصيحون :

« هبت هبوب الجنة . أين أنت يا باغيها ،

« خيالة التوحيد اخوان من أطاع الله ،

« فلا يبقون ولا يذرون ،

ولم يصبح ابن السعود سوى عشيرة واحدة قرب المدينة مذ
دخل الحجاز. لأن الأمر بعد ذلك لم يحوجه الى تصبيحة أخرى.

والطريق الى مكة واد غير ذى زرع ، وعلى جانبيه جبال شتى
الشكول متفاوتة العلو ، ومناظرها توقع فى الروع أنها غاصة بالمعادن
المختلفة ، ولست أعلم أن أحداً درس طبيعتها وفى الطريق محطات
أو استراحات ، يحد فيها المسافر القهوة والشاي ، ويستطيع أن
يبيت فيها اذا أدركه الليل أو التعب أو كالت مطيته ، وكبراها
بحرة فى منتصف الطريق ، ولها سوق دكا كينها من الخيش والخشب ،
ووراء السوق على الجانبين البيوت الساذجة ، وفيها عيادة أنشأتها
الحكومة أو مستشفى صغير لمن يقعد به المرض فى الطريق ، من
الحجاج أو الأهالى . وفى كل محطة مخفر وتليفون . ولم أستغرب
هذا الطريق الموحش ولم أجد فيه جديدا ، فانى فى مصر أعيش
فى رقعة من الصحراء والى جانبي الجبل .
وقد دخلنا مكة بعد العشاء .



في مكة

دخلنا مكة لا أدري متى ؟ - بعد العشاء أو بعد المغرب ، في الظلام والسلام - فما في الوسع أن يعتمد المرء في الحجاز على ألوان النهار والليل لمعرفة الوقت ، أو يركن الى الشمس أو حتى الى القمر ، وقد انتهيت بعد ثلاثة أيام الى إساءة الظن بالشمس والايقان باختلال دورتها . وهل كان في مقدوري أن أ كذب ما أجمعت عليه ساعات الحجاز الجديدة وأن اصدق هذه الشمس القديمة وحدها ، ولم تكن ساعتى على يدى فقد تركتها مع ثيابى لما لففت نفسى فى مشامل الاحرام ، فلا عجب اذا كان الأمر قد اختلط على فلم أعد اميز بين النهار والليل .

بعد العشاء إذاً أو بعد المغرب - كما تشاء فكله ليل - شارفنا مكة فنفخ السائق فى بوقه تنبيها وزجراً للناس عن الاحتشاد فى طريقه ، وفتحت أنا الشباك لأنظر فلم تأخذ عيني شيئاً ، حتى رمال الطريق وصخور الجبال لفها الظلام فى شملته ، فاضطجعت وقلت إن لى شأنًا غير شأن أصحابى ، هم يدخلون مكة دخول الغريب عنها فمن حقهم أن يتطلعوا ويشرفوا وينظروا ويتأملوا - اذا وسعهم ذلك - ولكنى

أنا ابن هذه البلاد . بل ابن مكة بالذات ، فان جدنى لأمى مكية
زوجوها وهى بنت عشرين سنة رجلاً فخلاً من أهل المدينة
فنشزت فطلقوها منه ثم احتملوها الى مصر بعد وفاة أبيها وخراب
بيته وتجارتها فتزوجت جدى ، ثم ان أبى هازنى مثلى ، وقد انحدرت
اليه هذه « المازنية » ثم إلى بعده على نحو ما انحدرت إلينا « الأدمية » ،
وهذا كله مفسر فى « صندوق الدنيا » فيرجع اليه من شاء من
طلاب هذه الأنساب العريقة . وقد أسلفت القول على قبر حواء
جدتى العليا ولست أكنم القارىء أنى تأثرت جداً وأن الدمع غلبنى
حين الفيت نفسى - أنا الغريب البعيد عن وطنى وأهلى واصحابى
وعن كل من يعنى بى أو يكثر لى ، واقفاً أمام قبر جدتى ! وصحيح
أن القرابة بعيدة ، ولكنها على كل حال ، من رحى ، وأنا على
الأصح من رحى . ولم يخالجنى ظل من الشك فى أن هذا قبرها
على التحقيق ، فقد حن الدم فى عروقى اليها ، وكان حنينه
بالغريزة التى لا تخطئ ، ولن يكذب الدم فانه ليس بماء ، وشعرت
بأن معين حى البنوى لها قد جاش واضطربت أعماقه وطغى
وفاض من مقلتى فاستندت الى حديد الباب وأسبلت الدمع .
نعم بكيت أسفاً ، لأن جدنى لم يطل بها العمر حتى ترانى ، كلا .
وما ضاعف أسفى أنى انا ايضاً لم يفسح الله فى أجلى حتى كنت
أراها - فماتت قبل أن يخطر لأبوى أن يحيا بى ببضعة آلاف

من السنين كان من السهل أن تطوى ولم تكن الدنيا تخسر شيئاً لو أنها لم تكرر عليها . بضعة آلاف فقط كان يمكن اختصارها أو اختزالها على نحو ما ، لتتمكن الجدة والحفيد من التعانق وشفاء غلة الشوق المتبادل ! ولكن على المرء أن يحتمل متاعب الحياة وأن يتجلد على صروف الأيام . ولعل ما صارت إليه جدتي المسكينة المحرومة هو الخير ، ولو أنها عاشت الى اليوم ولم تمت ، لما أتاحت لنا فرصة للخروج الى الحياة ، وفي هذا بعض العزاء لنا .

و رأيتني أتلفت - بقايا فقط - وأنا داخل مكة كأنما ابحت عن بنى مازن أهلى وعشيرتى ، واشتقت أن اعانق القبيلة كلها بكل ما فيها حتى الخيام والجمال والخيول والسيوف والرماح ، وأن أضمرها الى صدرى وأن اريح رأسى على صدرها وأن أذرف دموع الفرح ببقائها بعد طول النوى وبعد الشقة ، وعجبت كيف لم يخرج منها لاستقبالى والترحيب بى ، وساورتنى المخاوف عليها . وأشتمقت ان يكون ابن السعود قد رماها « بتصبيحة » ! فان قومى - عفا الله عنهم - من ذوى المروءات ، ولست أعرفهم أطاقوا قط أن يدعوا مسافراً مثقلاً بالأحمال راحاً تحت الأعباء . وابن السعود يكره هذا التخفيف عن الناس ، ويؤثر أن يدعمهم ينوؤون بما عليهم وما معهم ، ولا يحيز هذا الضرب من التعاون .

وأقسمت - في سرى - اذا كان (الاخوان) «١» قد (صبحوا)
قوى ، ليكونن لي معهم شأن آخر .

ولما صارت بيننا وبين مكة خطوات قال واحد :

« ألا تفتحون النوافذ ؟ »

قلت : « ولماذا ؟ » .

قال : قد يكون هناك جند لتحتيكم فيحسن أن تبرزوا لرؤ

التحية . »

فقلت وأنا أرتد الى الوراء وقد أحسست أن وجهي صار

كالجمرة وان كانت المرأة التي أمام السائق لم ترفى شيئاً ، لأنها بعيدة
عنى ومنحرفة أيضاً :

« عفواً ياسيدى . لا تخجلوا تواضعنا . أرجو . ألع ... اصرفوا

الناس عنا ... » .

وكنت أريد أن اقول كلاماً آخر ولكنى نسيت له لأن صيحة

مزعجة انطلقت وسكت آذاننا على أثرها قعقة سلاح . نفخت

وسمعت أسناني تخبط وهي تصطدم . ثم مالكت نفسي وأسعفتني

الظلام فابتسمت لما علمت أن هذه تحية يتلقانا بها الجيش على

باب مكة .

وانطلق البوق يرد الناس عن الطريق ، ومضى السائق اللعين
يخطف بسيارته كأنه يفر بها من الموت ، ولا يمهلنا حتى تتأمل
الناس المحتشدين على الجانبين والدكاكين المضائة ، بمصاييح البترول
- أو الزيت فما أدرى - والطريق طويل يشق مكة من بابها الى
آخر الكعبة ومن ورائها الى السوق ، وقد قطعناه بالسيارة في
سبع دقائق ، ثم وقفت بنا أمام دار الضيافة على « المسعى بين
الصفاء والمروة » وأمام باب السلام ، فنزلنا وأقبل علينا ناس كثيرون
يسلمون علينا ، فقلت هذه فرصة ، ولعل بعض قومي بينهم أتوا مستخفين
فملت عليهم ، او على الأصح ، شبيت اليهم وتعلقت بأعناقهم
وطوقتهم بذراعى وساقى أيضا - ذراعى حول أعناقهم وساقى
حول صدورهم - وأهويت عليهم أقباعهم وألثم أفواههم وخدودهم
 وأنوفهم وآذانهم ورقوسهم ، وكان كل منهم يتلقى مظاهر شوقى بما
تستحقه وتستوجبه من السرور والجلد ثم يحطنى على السلم .

وملنا الى غرفة رحبة نصفها مضاءة ، والنصف الآخر تصعد
اليه بدرجتين وهو مفروش ومعد للجلوس وفى وسطه مكتب عليه
تليفون ، فهممنا بالجلوس فقليل بل توضحأوا لتطوفوا وتسعوا وتحللوا
من الاحرام ، فان سمو الأمير ينتظركم . فتلفت حولى ثم الى
الدرجتين ورحت أفكر فى طريقة محترمة لهبوطهما فلم يفتح الله

على بحيلة . وكان اخواني في خلال ذلك قد سبقوني الى الوضوء
فدنوت من حرف الدرجة ورأيت عبداً طويلاً فأشرت اليه فدنا
منى . فأنحيت من مرقبي العالى كأنى أريد أن أهمس فى أذنه شيئاً
ثم غافلته وتعلقت به ودرت وتركت نفسى أنحدِر على هذا العمود
الآدمى الى الأرض بسلام .

وقدم لى أحد العبيد « قبقابا » فنظرت اليه ثم هزرت رأسى
وسألته :

« ماهذا ؟ »

قال : « قبقاب للوضوء »

قلت : « ولكن كيف ألبسه ؟ »

قال . « اخلع نعليك وأدخل هذا بين اصبعيك »

و « هذا » عبارة عن اسطوانة دقيقة من الخشب المنجور
عمودية على سطح القبقاب ، يدخلها المرء بين اصبعيه ثم يذهب
بزحف أو يجر القبقاب ، على الأرض ولا يرفعه عنها لئلا تفلت
الاسطوانة من بين الاصبعين ، اذ لاسير من الجلد له يمسك ظهر
الرجل ، فقلت بل الحق خير من هذا وقعدت أتوضأ .

وللحرم عدة أبواب ، ينحدر منها المرء الى صحن رحيب جداً
يدور بالكعبة ، كصحن الأزهر إلا أنه أوسع كثيراً ، وأرضه رمل
حصى ، ولكنه حول الكعبة مبلط ، وكذلك ما بين الأبواب

وهذا المطاف . وقد تسلمنا شيخ المطوفين ومضى بنا الى مقام
ابراهيم - جدى أيضا - عليه السلام ووقف بنا وصفنا بين المقام
وزمزم وقال صلوا ركعتين ففعلنا ثم نهضنا وبدأ الطواف ، وشرع
فى العمل ، وكنت أتمنى لو تريت قليلا - دقائق فقط - لأنظر الى
الكعبة فى الليل على ضوء الكهرباء ، ولكنه لم يعبأ بذلك وطوى
ذراعيه الى صدره كأنه يتهيأ للجرى ، وتلك هى الهرولة . ومضى
يدعو ونحن نقول وراءه ، وكنت وأنا اهرول موزع النفس . عيني
الى الكعبة والى الطائفين مثلنا وهم جماعات جماعات وكل جماعة
تهرول وراء مطوفها وأذنى الى هذا الشيخ المطوف الذى كان يأتى
الا ان ينطق عبارات الدعاء بأقصى ما يستطيع من البطء والوضوح
وبأكثر ما يسعه من اللحن أبضا ، كأنما حسبنا بعض الجاويين أو
الهنود ولم يدر - سامحه الله - أنا . . ولكن المفارقة لتليق . غير
أن لحنه كان يمزق أذنى ويفسد على تبثلى فى الطواف . وقد
أذكرنى جماعة « التراجمة » فى مصر الذين يحشون رموس السائحين
وزائرى الآثار المصرية بالأغاليط التاريخية والسخافات الفاضحة .
وكما عالجت مصر مشكل التراجمة والأدلاء بإنشاء مدرسة لهم ،
كذلك أنشأت لهم الحكومة السعودية معهداً لتخريج المطوفين ،
وحنسناً فعلت ، فان من رأينا من المطوفين أعاجم .

ووددت لو أتيح لى أن أتمهل عند الحجر الأسود فانه عجيب ،
ولكن الزحام كان شديداً : ولسنا بأحق من سوانا بذاك ،
وهو أسود فاحم ووضاء مشرق ، وحوله إطار بيضاوى من الفضة
والمرء يحتاج حين يقبله أن يدخل وجهه فيه لأنه - أى الحجر -
مخوف . وأحسب أن السنة مئات الملايين من الخلق قد
لحسته وأكلته ، أو ، لأدرى ، لعله كان هكذا أبداً ، وقد قلت وأنا
أفعل ما فعلت الملايين قبلى وما ستفعل الملايين بعدى ، كما قال عمر
ابن الخطاب : « اللهم انى أعلم أن هذا حجر لا يضر ولا ينفع
ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبله ما فعلت »
والركن اليمانى حجر آخر فى زاوية كزاوية الحجر الأسود ،
ولكنه أشبه بحجر الصوان أو الجرانيت سوى أنه الى الخضرة
أميل ، ومن عجيب أمره أنه يبدو للطائف على بعد متر أو اثنين
كأنه من المعدن أو الفضة . وقد نازعتنى نفسى مراراً أن أترك
الصف وأتخلى عن المطوف وأدنو منه لأتأمله ، فلما أذن لنا
المطوف أن نفعل فى الطواف السابع كنت أسبق الإخوان اليه .
والحق أقول انى أحس أن طوافى هذا لم يحسب لى فى عداد
الحسنات التى يسجلها أحد الملكين ، فقد أفسده المطوف ببلخه
كما أسلفت القول فى ذلك ، وكنت أنا من ناحية أخرى أرد عني
بجهد واضح عن التطلع والنظر فيما حولى ، وهكذا خرج كل من

اخواني بقصر أو قصور في الجنة وخرجت أنا كما دخات وليس لي سوى مشملين على بدني احتفظت بهما للذكرى ، فلا بد إذن من عمرة أخرى أو حجة أعوض بها ما فاتني .

وقد اشتيت وأنا ألمس الحجر الأسود أن اقتطع منه قطعة أحملها معي وأعود بها ، فقد خيل إلى أنه عنبر متجمد لا حجر . وجمحت بي هذه الشهوة حتى لأنستني أن ليس على بدني سوى مشامل الاحرام فذهبت أنحس لعل معي مبرة أو شيئاً يصلح للقطع ، ثم أفقت والتفت وإذا بأحد اصحابي يمد يده بمندبل يمسح به الحجر ، فعجبت من أين جاء بالمندبل وكيف حمله و أين خبأه . وقد كانت يداه فارغتين ، وتاملته وإذا بالحديث يلبس تحت المشامل ثيابه الصوفية .

وقد قلت له لما عدنا إلى دار الضيافة :

« هات جنيهاً ياسيدي . جنيهاً ذهباً . »

فحملق في وجهي وقال : « لماذا ؟ »

قلت : « جنيهاً نشترى به ذا القرنين »

قال : « ذا القرنين ؟ لست أفهم »

قلت : « خروفا ذا قرنين طويلين متلوين نطلقه عليك .

فينطحك بهما ثم نذبجه ونطعم الفقراء لحمه » .

قال : « ولكن لماذا ؟ »

قلت : « جزاء وفاقا بما زورت على الله يا خبيث ! أتلبس ثياب
صوف تحت المشامل مغالطاً ربك في قلب الحرم المقدس ثم تتجاهل
تُحاول ان تهرب من الفدية ؟ ! هات لنا ذا القرنين عجل ! »
ولكنه لم يزد على أن قال: أوه ! « وضحك »

وملنا الى زمزم وهى بئر فى الحرم عالياً بناء له باب ، فسقونا
نـها ماء غير سائغ ، ودخلنا البناء لنغسل رؤوسنا ولا أدري لماذا ،
اقترح بعضهم علينا أن نستحم بمائها فلم نر لهذا موجبا ، فان ماءها
رد وجو مكة فى الليل غير دافئ ، وعلى فم البئر سور من الحديد
ال أقامته الحكومة لأن بعض الحجاج يحلوا لهم أن يلقوا بأنفسهم
البئر ليغرقوا ويموتوا شهداء على ظنهم ويذهبوا من قاعها الى الجنة
باشرة بأخصر طريق .

وخرجنا للنسعى ، بين الصفا والمروة . وهو طريق بينهما مهدته
الحكومة السعودية وعبدته ورصفته تسهيلا للنسعى ، وطوله نحو
يلو أو أقل ، ولا بد من قطعه سبع مرات ، فلما شرعنا نسعى جاءنا
لبشير من قبل الأمير أن وسعكم أن تسعوا بالسيارة اذا كان
تعـب قد أدرككم فرفعت بدى بالدعاء لنموه وابتهلت الى الله أن
طـيل عمره وأن يلهمه دائما — على الأقل ونحن فى الحجاز — مثل
هذا التيسير على الناس وعدوت الى السيارة فصاح بى الدليل الذى
سعى بنا أو معنا على الأصح :

« الى أين ؟ »

قلت . « الى السيارة . باصابر . تعال بسرعة »

ولكن صابراً سائقنا كان ملكياً أكثر من الملك ، فقد أبى لنا أن نسعى بالسيارة وقال ان هذا لا يجوز ، وان المسعى غاص بالساعين وبالنساء والرجال والاطفال ، فليس ما تبغون من الانسانية في شيء . فنجلنا وركنا السيارة بعد أن استويننا فيها . وأصارح القارئ باني لعنت « صابراً » هذا في سرى ، وان كنت لم يسعني الا احترامه ، وهو شاب في العشرين من عمره حدثنا في الطريق أنه مصرى الأصل وان لأسرته نحو مائة عام في الحجاز ، وقد كان على أيام الحسين أحد رجال فرقة الموسيقى الحربية ، ولكنه الآن سائق سيارة في شركة القناة ، وأبرز صفات هذا الشاب الجرأة والاستقلال مع الأدب الوافر ، وحديثه ممتع وفي لغته فصاحة وفي صوته عذوبة وفي عينيه حلاوة ، ولو كان الغناء مباحا لكان الأرجح أن نسمع منه شذواً مطرباً ، وقد كان يخاطب كبراء الحجاز في جدة ومكة وفي الطريق بينهما مخاطبة الند للند ويشعل أمامهم سيجارته ويذهب يدخن و يناقشهم ويحاجهم ويعترض على بعض ما يقولون ويدلى بالصواب في رأيه كأنه ند لهم ، وكانوا هم يتقبلون منه ذلك ولا يرون فيه شذوذاً ، ولا يبدو عليهم أثر لدهشة أو الامتعاض ، فالامر اذاً مألوف .

ولكنه حنبلي مستبد ، أبى لنا ان نسعى بالسيارة ، فلما أصر
رسل الأمير وألحوا ، ترك السيارة وأبى أن يسوقها فتولاها غيره ،
وأحسب صابرا قد حققها علينا وأسرها لنا فقد تخلى عنا بعد
أن عدنا الى جدة ، وعلى أن هناك حاقدا غيره ، هو زكى باشا .
سعى على قدميه مع بقية اخواننا وسعينا نحن بالسيارة فجعل بعدها
يشنع علينا ويشهر بنا - مازحا - فى كل خطبة له ، بل جعل يتخذ
من ذلك دليلا على ان الاسلام لا ينافى التقدم ومظاهر المدنية
الحديثة ، وما كان هذا الدليل ينقصه ولكنها الرغبة فى التشهير
بضعفنا وإعيائنا والمباهاة بقوته وجلده على الرغم من سنه .

وقصصا شعرات من رؤوسنا ولبسنا ثيابنا ، أما أنا فاخطأت
وقصصت الشعرات بعد ارتداء الثياب ولم اتنبه الى خطيئتي الا
بعد أن صرت فى نصف ثيابي ، فكتمت الأمر ، وفى مرجوى ألا
يفطن اليه الملك الموكل بى ولا أدرى أيهما ولكن هذا الاختلاف
على الاختصاص شأن يعنى الملكين وحدهما ولا دخل لى فيه
ولست مكلفا أن أفضه - غير أن أحد زملائي أبى إلا أن يلاحظ
ذلك و يرفع به عقيرته ويصبح مسجلا على هذه المخالفة ، فأحسست
بالملكين جميعاً يتحركان و ينتزعان الريش من جناحيهما لتدوين
هذه الملاحظة ، فتكظمت غيظي وقلت وانا أتكلف الابتسام :

« ياسيدى ان العمرة فسدت كلها من قبل ذلك ، وقد اعتزمت
ان أعوض ما فاتنى فى وقت آخر »
ثم التفت الى يسارى وقلت بصوت عال لكاتب السيئات :
« وعلى أن الذنب فى خطئى راجع لغيرى : الى المطوف أولاً
ثم اليكم ، فقد كان واجبا على العارف يعلم الجاهل ، .
واسترحت بعد أن أدليت بحجتى وشرحت عذرى وحركت
كتفى اليمنى تنبيهها لمسجل الحسنات



وقصر الملك فى طرف من المدينة ، وهو طويل عريض ،
مبنى بالآجر ، وله جناح جديد هو الذى دخلناه ، وفى فناءه حديقة
صغيرة وقد استقبلنا الجيش على الباب وحيانا لأدري كيف
فلست اخصائيا فى حركاته . وصعدنا الى حجرة عظيمة طولها -
على ما أقدر - لأقل من خمسة عشر مترا فى نحو عشرة أمتار ،
مفروشة ببساط من المخمل ، وعلى مدارها مقاعد عالية شبيهة
« بالكنب » المصرى ، ومكسرة « باليوت » والمخمل ، وكذلك
« براقع » الستائر وفى وسطها صف من العمد يحمل سقفا ،
والجدران مكسوة ، وكان الأمير جالسا فى الصدر فنهض لاستقبالنا ،
فسلمنا وجلسنا وجاءت القهوة ، ومن بعدها الشاهى أو الشاي .
والأمير فى الرابعة والعشرين من عمره ، وهو نائب الملك

فى الحجاز كما ان أخاه الأكبر الأمير سعود - ولى العهد - نائب الملك فى نجد ، وثيابه ثوب أبيض « كالجلالية » المصرية فوقها سترة « جاكتة » رمادية عليها العباءة السوداء وهى رقيقة النسج شفافة ، وعلى رأسه « الحرام » والعقال . وهو قسيم وسيم حلو النظرة عذب الابتسامة وديع ، ولكن نظرتة حين يصمت تبدو حزينة ، وفى تقوس شفثيه وذقنه مرارة لا تخلو من تصميم ، أما القوة فأيتها أنفه الأقى وجبينه العريض . وأغرب ما فى وجهه اجتماع اللين والصلابة والركة والقوة ، واختلاط ذلك كله وتسرب بعضه فى بعض ، وهو أنطق وجه رأيته بجميع هذه المعانى ، غير أن المرء لا يسعه إلا أن يشعر أن هناك زاوية ورآء هذا المحيا الناطق يغيب فيها الأمير خواطره وأرآءه الخاصة ويحجبها عن العيون الفاحصة . وقد كنت أتوقع - قياساً على ما شهدت فى جدة - أن يكون قصر الملك أفخم رياشا وأفخر أثاثا ، فإذا به يمتاز بالنظافة التامة والبساطة الكاملة أما الأبهة فقد تركها لمن شاء من شعبه .

و غرفة الطعام كأبسط ما تكون : حجرة مستطيلة تسع نحو مائة . فى وسطها مائدة طويلة ساذجة صفت إليها الكراسى الخيزران ، وأدوات الأكل تامة ، والآنية كلها من طراز واحد ، والملاعق والسكاكين وما إليها من الفضة ، وقد تناولنا الطعام على الطريقة العربية وقضينا فيه أكثر من ساعة نتفكه عليه بالحديث .

ولم يكن ثم نظام معين أو ترتيب معد للجلوس بل قعد من شاء حيث شاء ، وقد احتفظت بقائمة الألوان ، وهي مطبوعة على الآلة الكاتبة وفي نشرها دفع لكثير من الأوهام الضيائية :

« شورية بالبزاليه

دجاج رستو بالبوريه

بامية

حلا كريمة بالكاكاو

بريك

دجاج بالكري

بدنجان اسود بالزيت

حلا كيك بالمشمش

رز بالشعرية

فاكهة »

وقد علمنا من سموه ان الخضر تزرع في وادي فاطمة -
وسيجي ذكره - من مثل البامية والملوخية والباذنجان و الخرشوف
وما الى ذلك ، وفي الوادي قواكه كالموز والليمون الحلو فضلا
عن الملح ، وقد كان سموه يذكر ذلك بلهجة المباشرة ، ولفتنا بصفة
خاصة الى الباذنجان ، ولكني لم استمرته لأنه غليظ سميك الجلد
غير سائق الطعم .

ولا أطيل على القارىء . ذهبنا بعد الطعام الى حجرة أخرى للجلوس ، مؤتثة على طراز حجرة الاستقبال الكبرى ، ولكنى استغربت أن أرى فيها دولاباً مما يتخذ للثياب ، وأديرت علينا القهوة وأكواب الشاي ، واشتهينا أن ندخن . ولكن التأدب منعنا ، والناس لا يدخلون فى حضرة الأمير أو كبار النجديين لأن الدخان مكروه عندهم ، وكان الليل قد انتصف فاستأذنا فى الانصراف . ولو أننا كنا انتظرنا حتى يصرفنا هو لبثنا الى الصباح ، فما مما يليق عندهم أن يصرف الرجل ضيفه ، ولم نكد نطلق بالسيارة حتى أشعلنا السجائر .

ومن غريب عاداتهم أن الضيف لا ينام على فراش اتخذه واحد قبله ، فاذا ذهب ضيف فكت المراتب والوسائد والأغطية وأعيد تنجيدها لمن عسى أن ينزل من الضيوف ، وقد لفتنا الى هذا أنا رأينا كل ما على الأسرة جديداً لاشك فى ذلك ، فسألنا فعلمنا مارويت ، وقيل لنا سترون المنجد غداً يدخل وأنتم خارجون . وأقسم مانمت على فراش أوثر من هذا ولا أمتع ، ولقد راهنت واحداً على أنه محشو بالريش فخسرت الرهان وتبين أنه قطن جيد مندوف لا أكثر .

ولما فتحت الحقيبة لأخرج ثياب النوم وجدت أنى نسيته فى جدة ، فقلت : لا بأس قليل من التقشف ينفع المترف ، وبحسبى

بعض ما على من الثياب .

و أخذت النوم وأنا أفكر فى الأمير وفى انتظاره إيانا فى قصر
جلالة الملك ثلاث ساعات من غير أن يمل أو يتأفف ، بل من غير
أن نشعر نحن بالحاجة الى الاعتذار له .

لا أدرى ماذا أصابنى فى مكة ، فقد كنت أحس أن عفريتاً من
الجن ركبنى ، وبلغ من شدة الحاح هذا الشعور انى كنت، أراى
أقف فى الطريق وأثبت قدمى فى الأرض مباعدا بينهما وأرفع
إحدى ذراعى الى ما وراء كتفى كمن يريد أن يسند شيئاً ثم أرفع
كتفى وأحطهما كأنى أريد أن أرد ما فوقهما الى الاتزان والاعتدال
كما يفعل من يحمل طفلاً أو غير ذلك ، فذكرت قصة السندباد
البحرى الذى ركب به ما ركبنى ، فلم يزل مستقراً على كتفيه حتى
سقاء السندباد البحرى خمراً أدارت رأسه وراخت أعصابه
وفككت أوصاله فطرحه عنه . ولقد تمنيت لو أتيح لى أن أسقى
عفريتى كأساً من الوسكى أو حتى من الزيت لأتخلص من
ثقل هذا الكابوس ، ولكننا كنا فى مكة ولا سبيل فيها الى شراب
غير ماء زمزم . وهو ماء قد يغى النفس ولكنه لا يسكر

على أنى لم أقطع الأمل ، وكيف أقطعه وهذا العفريت على
كتفى قد لصق بهما وصار كأنه امتداد لهما ؟ وكيف أطرح حمله
الثقيل عن عاتقى بغير الوسكى أضحك به عليه وأززل كتفى تحتة ؟

« ففحصت الوجوه التي حولى وتفرست فيها ملياً ثم اخترت وجها
كالمنتفخ فيه عينان باطن أجفانهما المحمر كأنه مقلوب ، وقلت له :
« يا صاحبي أنى أشبه الخير من وجنتيك ، وأنس الرشد من
عينيك ... »

فقاطعنى « عفواً سيدى ... »

قلت « لا داعى لهذا التواضع فان الأمر بين ولا يشك فى ذلك
الا أعمى ؛ فهل لك فى معاونتى ؟ »

ففرك كفيه جذلاً وتهذلت شفتاه الغليظتان وانشقتا عن
أسنان طويلة سوداء ، وقال وهو يحنى رأسه قليلاً :

« مرّنى ياسيدى يحن هنا خدامكم »

فوضعت كفى على كتفه وقلت :

« أستغفر الله . إن الأمر بسيط على ما أظن لا يحتاج إلا إلى

خادم واحد يعرف كيف يصرف العفاريت عن الناس »

فخلق فى وجهى كأنه لا يفهم فمضيت فى كلامى وقلت :

« ان لنا فى مصر طريقة مجربة نصرف بها العفاريت إذا

ركبت الناس ، وقد أخذناها عن السندباد البحرى ، أظنك

تعرفه ؟ لا بد أنك سمعت به . إنه ذلك التاجر البغدادى الشهير ... »

آه لا تعرفه ؟ عجيب هذا ! إذا ما طريقتمكم أنتم ؟ »

فتلعثم وقال : « طريقتمنا ؟ طريقتمنا ؟ هل يريد السيد المازنى

أن يقول إنه يعتقد أن العفاريت تركب الناس ؟ »

قلت بضجر : « طبعاً . طبعاً إن العفاريت مذكورة في القرآن . أفلا تؤمن بالقرآن ؟ على أن المسألة لا نحتمل الخلاف فإن الواقع من الأمر أن على كتنى الآن عفريتاً وأنا أريد أن أصرفه فما أستطيع أن أظل احتمله في غدوى ورواحى هكذا ! ثم انى أريد أن أدخل الكعبة غداً فكيف أدخلها بعفريت ؟ ألم تنهم ؟ أن العفريت يود أن يغتتم هذه الفرصة - فرصة وجودنا وكوننا ضيوف الأمير والساح لنا بدخول الكعبة بغير تفتيش : فيدخل معى ، أعنى مستخفياً على كتنى . وهذا لا يجوز ، ولست أرى أن أساعده على ذلك . أفهمت الآن ؟ »

فضحك الخنزير - أعنى الرجل الذى توسمت منه الخير ، وظننى أمزح ، وقال :

« يارجل . والله لقد حسبتك جادا ؟ »

فغاضبنى ذلك ولكنى كظمت غيظى وقلت بابتسامة متكلفة :

« لقد أخطأت . إسمع . قد يكون عفريتى مؤمناً أولاً يكون

لا أدرى . لذلك أريد أن أصرفه . فهل لك أن تعيننى ؟ أجب

بلا أو نعم . وعسى أن لا نخيب أملى فيك ،

فعاد اللعين يضحك ، وأحسبه أحب أن يجارىنى فيما ظنه

مزاحاً منى فقال :

« وما هي طريقة السندكار البحري التي تتبعونها في مصر ؟ »

فتشجعت وقلت بلهجة الجد المر .

« نسقيه كأسا أو اثنتين فيسكر فنلقيه ونستريح منه - طريقة

عملية - بل هي أضمن طريقة لأن قوة الاسكار في الخمر حقيقة علمية ولهذا نهى الشرع عنها »

فأرسلها ضحكة مجلجلة نجأوبت باصدائها الحجرة فأسرعت

فوضعت يدي على فمه وبودي لو أ كتم أنفاسه فقال بعد أن تخلص مني :

« والله يا أهل مصر إنكم لظرفاء »

فقلت « العفو . هذا بعض ما عندهم . على أن في الوقت متسعا

لتقارض الشاء فهات لعفريتى كأسا »

فابتسم وقال .

« كيف تسقيه وأنت لا تراه ؟ »

فقلت « إني أعرف الطريق الى فمه فان بيننا الآن اتصالا لا

تدركه أنت . فهاها أولا والباقي على . »

ولكنه لم يفعل ، لأنه ظن لبلايته أني أستدرجه الى

الاعتراف بان في مكة خمر ، وقد رأيته بعد ذلك فعجبت أين .

غابت سمات الخير و كيف استسرت مخايل الرشد التي كنت

اجتليها في وجهه ؟

وقد ساط زكى باشا نفسه علينا بعد ذلك فى الفجر أو قبيله
«بدقائق وكننا نياما ، كما لا أحتاج أن أقول ، وكان عفريتى قد
انصرف عني فى الهزيع الأخير من الليل - انصرف على يأس
كبير ، وكان فى حجرتنا ستة أسرة على صفين ، والباقون منا فى
حجرات أخرى . وكان سريرى بجانب النافذة بحيث يسعنى
بأيسر مجهود ان أطل من الشباك على الحرم ، واتفق انى كنت
أحلم بالعفاريت وأرانى كأنى أسقيها خمراً وأعابشها وهى تترنح
فأدغدغ لها خصوصها تارة ، وأشعل السجاير من عيونها طورا ،
وأجرها من ذبولها وأديرها حولى ، وهكذا وإذا بصوت ممدود
مزعج يوقظنى من سباتى ويبدد أحلامى اللذيذة ويطير خيالاتى
الممتعة ، ففتحت عيني متضرعاً ، فإذا شبح ضخم يبدو من وراء
الككة فقلت لنفسى « يا للفضيحة ! أيسطى علينا فى دار الضيافة ؟ »
وابتسمت مطمئناً فقد تركنا ما معنا من النقود فى جدة ، وتناومت
لأرى آخر هذه الحكاية ، فانبعث من الشبح صوت غليظ مديد
فرفعت رأسى مقدار قيراط فإذا به زكى باشا يبدو فى عباءته شيئاً
عظيماً جداً ، ولم يعجبني أن يوقظنى فى فحمة الليل فحولت وجهى
عنه فمد يده وصاح :

« قم ! »

فاشرت إليه ان لا ، فعاد يصيح

« أقول لك قم ؟ »
فصحت بأعلى صوت أستطيعه :
« وانا اقول لك لا فاذهب عنى »
فقال : « قم لنصلى الفجر فى الحرم . منظر لذيذ لا يصح
ان يفوتك »

فقلت « اذا كان المنظر هو كل ما تبغى ، فاذهبوا انتم فان
منظركم من النافذة سيكون امتع لى ، ويمكنكم ان تضعوا علامة على
ظهوركم لأعرفكم بها »
وأحسبه لم يسمع أولم يحفل ما أقول فقد مد يده من تحت
الكلة وراح يشد اللحاف ويعربنى وهو يقول
« قم . قم . قم . »
فصحت به وأنا أجذب اللحاف لأتغطى
« لا . لا . لا . »

فمضى عنى الى الباقيين واحداً واحداً ونسى انه أيقظهم جميعاً
حين أيقظنى



وتوضأنا ودخلنا الحرم ، وفتحت لنا الكعبة وبابها عال
والصعود اليه بسلم خشبي متحرك ، يوضع عند الحاجة ويرفع بعد
ذلك ، وهو من النوع الذى كان يتخذ فى المساجد المصرية ليرقاه

الخادم ليبلغ الأسرجة فيضيئها أو ينظفها ، وذلك قبل اتخاذا الكهرباء
وتناول يدي سادن الكعبة وأنا على آخر درجة فكادت أقع
وأهوى ذلك أني كنت أصعد على يدي ورجلي كما تفعل القردة ،
ولما استويت واقفاً طوقني بذراعيه وغمر وجهي بلحيته البيضاء
الطويلة وكنت أنا أيضاً قد أرخيت لحيتي ، وكانت بيضاء كذلك ،
ولكنها قصيرة فأسفت لأنني لم أرسلها قبل رحلة الحجاز بيضعة
شهور ، إذاً لاستطعت أن أقابل سادن الكعبة مقابلة الند للند ،
وان أشكه بلحيتي كما شكني بلحيته ، على أن لحيتي على قصرها أفادتني في
الحجاز وبأنتي مقام ملحوظا ومركزاً ممتازاً ، وأكسبتني وقاراً ليس لي ؛
وجعلت لي سمناً وأبهة لا عهد لي بهما . وكان الناس يحتفون بي
ويهرعون الي ويكبرونني من أجلها ، وينحنون على يدي فاجذبها
وأقول . « استغفر الله . تؤ . تؤ . تؤ بارك الله فيكم » ويعنون بي
ويمنعونني ان أمشي الى حيث السيارة لأن من كان في مثل سني ،
وكانت له مثل لحيتي البيضاء لا يليق أن يحشم مشقة ، أو يكلف
تعباً . فلو أن الغيد في الحجاز سافرات لبكيت ولقلت متوجعا كما
قال ابن الرومي :

أصبحت شيخاً له سمت وأبهة

يدعوني الغيد عما ، تارة ، وأباً ،

ولكنهن هناك محجبات ، فلا أسف ولا بكاء . وإني لحقيق

بحمد الله وشكره على أن بيض وجهي ولم يسوده كوجوه زملائي - أعني الذين كانت لحاهم سوداء ، وقد أسفت وأنا هناك على عمري الذي أضعته في الاشتغال بالأدب . وأنفقت في هذا العبث الذي لا يجدي . فإن لحية واحدة بيضاء ترجح هناك بمائة كتاب من خير ما أتتجت العقول ، ولو كنت أعرف هذا من قبل لجعلت وكدي لا الكتابة والتأليف كلا ، فإن هذا كله عبث بل معالجة لحيتي لتشيب .

ومشي بي السادن خطوات ثم وقف بي ورفع يديه . راح يدعو وأنا وراءه ، وعيني الى لحيته النشيطة التي كانت تتحرك مع الكلام ، وأقسم لقد نفستها عليه حتى لقد خطر لي أن أنزع عن وجهه وألبسها بدلا منه .

وقال بعد أن فرغ :

« صل هنا ركعتين »

قلت : « أين القبلة ؟ »

قال : « لاقبله هنا . كل مكان قبلة »

قلت « فهل أصلي دائراً حول نفسي كالكرة الأرضية ؟ إن

هذا صعب فأرني كيف أصنع »

فلم يفهم وقال :

« تصلي ركعتين في كل اتجاه »

فأنجحه لى رأيان أردت أن أستفتى فيهما .
ولكنى لم أجد من يفتى ، أو على الأصح لم أتوسم فى وجوه
من حولى قدرة على الافتاء ، فأطعت وصليت .

والكعبة من الداخل حجرة واسعة خالية بحمل سقفها عمود
غليظة من خشب زكى الرائحة ، وهى مكسوة ، ولكن الجزء الأسفل
من جدرانها معرى ، وعليه ألواح من الرخام حفرت فيها كتابات
مخطوط شتى ترجع الى عصور مختلفة تذكر أسماء من أصلحوها أو
رمموها أو زادوا عليها شيئاً أو فعلوا غير ذلك ، وبعض الكتابة
كالطلاسم لا يقرأ . وقد تعقبني رجل يشرح ما على الجدران، وكان
من الجلى أن شرحه خطأ وأن الاختراع فيه أكثر من العلم .
فسألته وأشارت الى لوح ردى الخط « ما هذا ؟ »

فقال : « هذا ياسيدى... هذا... أظنه خط... أ... أ... »

فقلت : استعجله « خط من ؟ »

فدنا من اللوح وتأمله من قريب ثم رفع رأسه وقال :
« نعم . المنتصر بالله المستنصر . . إيه ؟ نعم هو بعينه لقد
عرفته . »

فقلت : « آه عرفت خطه ؟ »

قال : « نعم »

قلت : « انه ردى »

قال « نعم غير واضح »

قلت « هل كان صديقك ؟ »

قال « صديقي ؟ »

قلت « لعله كان قريبك ؟ »

فخملق في وجهي ثم قال « انه قديم جداً »

فسألته : « الخط أم الرجل »

فقال « كلاهما »

فقلت « شئ جميل ! وأين هو الآن ؟ »

فقال بلمهجة المستغرب أو الذي بدأ يشك في عقل محدثه :

« أين هو الآن ؟ لقد مات منذ مئات من السنين »

فسألته : « وهل كتب هذا بعد أن مات ؟ »

فجذبني أحد الزملاء فلم ألتفت اليه وقلت لدليلي :

« أريد أن أبكي »

وأخرجت المنديل ورفعته الى عيني فأقبل على الرجل يسألني .

بلهفة .

« ما السبب يا سيدي ؟ لماذا البكاء ؟ »

فأجهشت وقلت بصوت متهدج من فرط التأثر .

« أسفا على المستنصر ! »

فجعل يطيب خاطري ويؤكد لي انه في وديعة الله وجنته .

فقلت والدموع تنهمر من عيني .
« ولكنه مسكين ، فقد عمره كله »
« فأخذ يشكر لي عواطف الرقيقة وشعوري الطيب فتسايلت عبراتي
على خدي وأنا أقول .
« لو كان قد أدرك لك لما خسر عمره كله هكذا . مسكين ! »
وانتجبت . فشدني زميلي وقال .
« تعال يا شيخ ! »

ولما عدت الى مصر . أقبلت أمي على تسألني فقصصت عليها
ما رأيت ، ووصلت في وصفي الى الكعبة فقالت .
« هل دخلتها ؟ »
فقلت . « بلى . دخلناها بصفة خاصة »
فقالت . « طوبى لك ؟ لا تخبر احداً بما رأيت فيها . احذر ،
فسألتها عن السبب فقالت .
« إن من يرى الكعبة من الداخل لا يقص على غيره ما يرى ،
قلت : « ولكنها خالية ولا شيء فيها . كانت أشبه بمخزن
للأوثان في الجاهلية فأخلاها منها النبي عليه الصلاة والسلام »
فقالت : « أيوه . خليك على كده . كل من سألك عنها تقول
الله لم أر شيئاً »

فقلت : « ولكنها حقيقة خالية ،
قالت تمام . مضبوط . بارك الله فيك ،
فقلت : « انى لا أكذب ولا أدعى : هى حقيقة كما أقول
خالية »

فقالت « أيوه . تمام . أهوكده . الله يزيذك عقلا . »
فأمسكت ، ولم أرلى حيلة ، و هأنذا أقول للقراء إن الكعبة
لاشئ فيها فليصدقوا أو لا يصدقوا ، وليكونوا كأمى ، وليدعوا
لى أو فليضنوا على بالدعاء - كما يشاءون

وقد كانت مصر ترسل الى الكعبة فى كل عام كسوة جميلة
دقيقة الصنع ، فكفت عن ذلك فخسرت مركزها الدينى الممتاز
وثناء العالم الاسلامى عليها وحمده لها وإعجابه بصناعتها ، وتبطل
من جراء ذلك صناع الكسوة المصريون الذين ورثوا هذا الفن
عن آبائهم وانقطعوا له ، وأنشأت الحكومة السعودية داراً
لصنع الكسوة جلبت لها الأساتذة من الهند ليتولوا ذلك وليعلموا
بناء الحجاز . و قد زرنا هذه الدار ورأينا أنوالها ونماذج مما
تخرج من الحرائر الموشاة والمطرزة بالقصب والفضة ، ومن
السجاجيد وما إليها ، وهكذا أفاد الحجاز صناعة جديدة وخسرت

مصر صناعتها القديمة البديعة ، وأصيب عمالها بالفاقة.

و من الممكن أن أقول - ومن الممكن ان يصدق القارىء -
ان لحيتى طالت فى خمس دقائق أضعاف ماتطول عادة فى خمسة
أيام ، و انى لولا سوء الحظ لخرجت من الحرم صباح ذلك اليوم
بلحية جليلة طولها على الأقل شبر . وسأروى للقارىء ما حدث .
و أنا على يقين من أن مروءته ستدفعه الى مشاطرتى ذلك الغم الذى
انتابنى لما أفلتت من يدى تلك الفرصة الفضية

وشرح ذلك كله أننا خرجنا من الكعبة أو نزلنا على الأصح
ثم قعدنا بين الصفوف عند باب الصفا ننتظر مقدم الأمير لزيارة
الكعبة وسماع الدعاء - على بابها - لجلالة والده بطول العمر ودوام
النصر والتأييد وبأشياء أخرى كثيرة نسيتها الآن وأذهلنى عنها .
ماوقع لى ، وكان الجيش صفين فى الطريق من دار الحكومة الى
الحرم ، وتلاميذ المدارس صفوفًا فى فنائه ، وقيل جاء الأمير فنهضوا
بنا الى الباب ، وأقبل سموه وبين يديه وأمامه وعلى يمينه ويساره
حاشيته وعبيده فى ثيابهم المزركشة وفى أيديهم المباخر ، فدفعونا
اليه وفرقوا بنا الخلق الى صفه فسرنا فى موكبه ومنا من استطاع
أن يكون الى جانبه ، وآخرون ردهم الزحام وراءه حتى بلغنا الكعبة.

ووقفنا أمام بابها ، فأجلت عيني في هذا الحشد الهائل وأنا أتصبر على ما أحسه من الضغط الذي كاد يقصف لي ضلوعي ، فرأيت الشفاه تلعب ، نخفت أن يرى أحد شفتي ساكنين لا تضطربان بشيء ، فقلت احركهما بالفاتحة لعل الله ينقذني ببركتها من الأزم الذي أنا فيه . وأشهد أنها كانت اشد الفوائح التي قرأتها في حياتي بركة ، ذلك اني ما كدت اتلو منها آية حتى ارتفع صوت بدعاء ، ثم رأيت شاباً - أوأنا أظنه ذلك - يرمي الى الداعي بعباءة رقيقة النسيج جميلة ، فقلت لنفسي وانا احسد الداعي ، والله اني لأحسبن ان أدعو بخير من هذا وبأجدي منه على الأمير ، ثم اني أرى دعائي مستجاباً أيضاً

ولم أستطع أن استرسل في هذه الخواطر ، فقد قطعها على أن سادن الكعبة - وكان واقفاً في حاشيته ، أولعلمهم ابتأؤه واحفاده في باب الكعبة ، فوقنا - تقدم خطوة وبسط كفيه وانطلق هو أيضاً يدعو ، فقلت لنفسي سيجيء دوري إذا ، فصبراً يامازني ، وعسى أن يكون مع الشاب الكفاية من العباءات ، وقارب الشيخ السادن ختام الدعاء فزل لسانه - والمرء ، كما تعلم بأصغريه . قلبه ولسانه لا بلحيته وقوامه - فدعى بطول النصر والتأييد .. ولكن.. للحكومة العثمانية !!

فصحت : « يا خبر اسود ! »

ولم أملك نفسى فقرصت ذراع جارى وانا اظنه زميلاً لى ،
وأدرت اليه وجهى متوقعاً ان أقرأ فى وجهه تأييد صيحتى فراعنى :
أولاً - انه لم يكن زميلاً لى ولا رجلاً اعرفه او احب أن اعرفه .
ثانياً - انه كان ينظر الى شزراً ووجهه من التقطيب
كالأسفنجة .

ثالثاً - انه كان يعرى ذراعه و يفحصه جيداً ، استعداداً
للملاكمى كما توهمت ، فخطوت الى الأمام وتسللت بين الأرجل حتى
حاذيت الأمير ، ولا اكنم القارىء انى خفت ، فقد ايقنت ان
قرصتى كانت اوجع لهذا الجار من الداء للحكومة العثمانية ، وانا
- كما لا يعلم القارىء - وكما يمكن ان يعلم بالتجربة - ماهر فى القرص ،
ومزيتى انى أتناول « خيطاً » من الجلد بين لحم اصبعى وافرکه بهما
لابأظافرى ، كما يفعل الاغرار والبلهاء ، فيكون لذلك كى ، وشى ،
ولذع كلذع النار ، فهذه فائدة خرج بها القراء من حيث لا يحتسبون
وايقنت وانا واقف ان سادن الكعبة سيطير رأسه عن بدنه
بضربة سيف ، وما على الأمير الا ان يغمز بعينه واحداً من عبيده
او يومئ له باصبع فاذا الراس يتدحرج على السلم ويهوى عند
اقدامنا ، ولم نخالجنى ذرة من الشك فى ان هذا آخر عمر الرجل ، ونسيت
ان الحرم كل من فيه وما فيه آمن ، وقلت لنفسى . مادام ان الرجل

مقتول لا محالة ، فمن الخسارة ولا شك ان تذهب لحيته مع روحه
وهي ستخلق له على كل حال بعد موته ، فما يكون المرء في الجنة إلا
امرد ، ورفعت عيني الى وجه الأمير وقد وطنت نفسي ان اتقدم
اليه ، بعد ان ألمح اشارة الاعداء ، راجياً ان يأذن لي في نزع
لحيته واتخاذها لنفسى . وحولت عيني الى الشيخ سادن الكعبة فاذا
واحد وراءه يجذبه من كتفه .

فقلت . « آه ! لقد حم أجلك يامسكين ! سيقودونك الى الخارج
ليقطعوا لك رأسك »

ولكن السادن خيب أملى ، ذلك انه التفت الى من يجذبه ثم
الينا وقال مصححاً :

« بطول النصر والتأييد للحكومة السعودية »

ضاعت الفرصة . خسرت اللحية . وسأخرج إذاً كما دخلت
وليس على وجهى سوى هذه الشعرات القصيرة ، وأأسفاه !
وسيظل هذا الرجل بشبر من الشعر الشائك على مدار وجهه
على حين أمشى انا بين الناس محروماً كاسف البال ؛ وما لحية
يضمن على بها الأمير ؟ ان صاحبها لا يزيد بها كبراً ،
ولا ينقص بغيرها عمره ، وقد لبسها دهرأ طويلاً فحسبه طول
ما تمتع بها ولن يضيره الآن وهو واقف على ساحل الحياة ،

أن نخام على ، أنا الذى ليس احوج منى الى مثلها
وهبط قلبي ، وتدلى رأسى على صدرى ، واسودت الدنيا
فى عيني ، وتهضم وجهى ، ونقص وزنى ، وتخاذلت رجلاى ،
فلو افسح الناس لى مكانا كافياً لتهافت الى الأرض وتهاويت
كوماً مفككاً من العظام اليابسة والأعصاب المرهقة ،
وأدبر لحم خدى . وظل يدبر ويدبر حتى بلغ أصول الشعر
ومنايته فبرز معظم الشعر الى الجذور .

ورفعت يدى الى وجهى فاذا بى أحس لحيتى قد طالت ...
من الهزال !

وانطلقت المدافع من قلعة بجاد فطار الحمام عن أكتافنا

وكر الأمير راجعاً فكررنا معه نتدافع ونتزاحم و يستوقفنا
رياض أفندى أمام الفوتغرافية فتلمس رؤوسنا فرجة تظهر منها .
أمام العدسة ، وأشب أنا القصير المسكين ثم انحط يائساً ، حتى
بلغنا الباب ، وكنا قد دخلنا من غيره ، فسبقنا الأمير الى دار
الحكومة . ووقفنا نحن ننتظر أن يجيئونا بأحدثتنا ، فلما صارت فيها
أقدامنا مضينا بين صفوف الجند الى دار الحكومة ؛ وراقنى منظر
الجنود فى ثياب « الخاكي » وقالت إنهم باقون لتحيتنا ولا شك

فقد مر الأمير ، فجعلت أتلفت يمينا ويساراً وأرفع يدي بالسلام
فسألني واحد

« على من تسلم ؟ »

قلت . « أريد نحية الجند يا أخى »

فصاح بي « أى جند يا أخى ؟ ألا نخشى أن يعدوا هذا تهكماً
منك ؟ أتريد أن توقعنا فى ورطة ؟ »

فمنحته أعذب ابتساماتى وأرقها وأحفلها بالعطف والمرثية ،
وواصلت تحيائى وتسليماى غير عابى بهذه الغيرة ؟

وتوقعت أن تنقض الدار ، فقد كانت غاصة لاموضع فيها القدم
فلورميت كرة صغيرة لظلت تتنقل من رأس الى رأس دون أن تصل
الى الأرض ، بل لكان الأرجح أن تصعد مع الناس الى الطبقة
العليا وأن تدخل على الأمير معهم .

و بعد لآى ما بلغنا غرفة الاستقبال ، وكان الأمير واقفاً فى
الصدر وحوله الكبراء والجند والناس يتقدمون اليه ويصافحونه ،
فاذا كان من بينهم عظيم أو وجيه وضع - أى الوجيه - يده على
كتفى الأمير وجذبه اليه وقبل أنفه لأن الأنف أبرز شئ فى
الوجه ، وقد وقف الأمير كما رأيناه ، مقدما أنفه لمن شاء ومتلقيا
عليها قبل المهنيين ولثامات الداعين ، فلما جاء دورنا وددت لو أنه
كان أمامه كرسي ! إذا لفزت أنا أيضا بتقبيل أنفه ولجربت ذلك

وعرفت سببه وتقصيت سره ، ولكنى كما تعرف ، فاكثفت
بأن تقدمت اليه فى تؤدة ووقار ، ويسراى تمسح لحتى تنبىها اليها
وافتا لشديها ، ويمناى نمتد الى يده وتقبض عليها .

والحق أقول ان سلام النجديين لا يعجبني لأنه بارد لا حرارة فيه
ولا روح ، والواحد منهم - أمير كان او غير أمير - يمد اليك
كفا مفتوحة مسترخية كأنها قطعة من الجبن الطرى لا عظم فيها
ولا أعصاب لها ، فاذا تناولتها وقبضت عليها لم يبادلك ذلك بل
ترك كفه لك تصنع بها ما تشاء ، ثم يسحبها فى فتور وضعف .
فتخجل وتبرد الحرارة التى تناولت بها يده ، ويحمد الدم فى عروقك .
وانصرفنا عن الأمير بعد السلام عليه ، الى غرفة أخرى
ذهبوا بنا اليها وهناك سقونا عصير الليمون ، ثم مالبتنا أن دعينا
الى الأمير فدخلنا وجلسنا وهناك مرة أخرى وأدبرت علينا
القهوة النجدية ، وأمرها عجيب ، ذلك أنها خليط من البن والمرى
والجبهان ولا أدري ماذا أيضا ، وطعم البن يختفى بين هذه الاخلاط
الحريفة ، ويحيثونك بها فى أبريق كبير من النحاس ، يحمله الخادم
فى يسراه ، وفى يمينه الفناجين الكبيرة بعضها فى بعض فيصب من
الابريق مقدار رشفة فى الفنجانة و يقدمها لك فتقلب الفنجانة على
فمك وتهزها لينحدر ما فيها بسرعة ، فاذا راقتك القهوة مددت يدك
بالفنجانة فى صمت فيصب لك رشفة أخرى وهكذا ، ولاهزرت

الفنجانة فينصرف عنك

وقد كنت وأنا في مجلس الأمير متعبا وكان رأسى أحسه
ثقيلًا ، وخفت أن انام أو اهوم ، فقلت انبه نفسى بالقهوة ، فرجوت
من الخادم أن يملأ لى الفنجانة فان هذه الرشقات الضيئلة لا تصنع
شيئاً ولكنه أثر عاداته فذهب يصب لى رشفة بعد أخرى وأنا
أناديه بعد كل واحدة وأرده الى ، ولا أناوله الفنجانة مخافة أن
يذهب عنى فلا يعود ، فلما تكرر ذلك أربع مرات خطف الخادم
الفنجانة وصاح وهو يمضى عنى ضاحكاً « يارجل ! »

فقممت وراءه وأنا أقول : « ما هذا الكلام الفارغ ؟ أريد قهوة
حقيقية لا لونا فى الفنجانة ! تعال هنا ! »

فأسرع الى واحد من الحاشية يسألنى ما الخبر .

قلت « الخبر أنى أريد أن اشرب قهوة حقيقية ، وهذا الرجل
يضحك على ويقدم لى دهانا فى قعر الفنجانة لا يسيل ولا يصل الى
حلقي منه شئ . هذا هو الخبر - ثم هذا لسانى (وأخرجته)
بذمتك هل ترى عليه أثرا للقهوة ! »

فقال الرجل « لا عليك . تعال ياهذا . أترع له الفنجانة »
وقد كان .

وكفوا بعد ذلك عن مخادعتى بلون القهوة وصاروا يجيئوننى بها فى
كل مكان قهوة حقيقية لاشك فيها ولا فى مقدارها ولا فى طعمها

ولا فى أثرها . ولكنّها سرقت النوم من جفونى ففهمت لماذا
يكتفون منها برشفة .

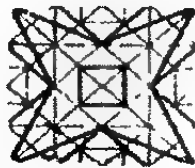
وعدنا الى دار الضيافة لنستريح فاتفق ان لقيت فى الطريق
واحدا لم اشك فى انه نجدى وكان فوق نجديته قصيرا ، فاقبلت
عليه وقلت هذه فرصة ، وقلت :

« كيف حالك ؟ ان شاء الله بخير . »

واهويت على كتفه فجذبته على نحو ما رايتهم يفعلون ومططت
شفتى استعدادا لتقبيل انفه . ولكنى لم احسن قياس الابعاد وعمل
الحساب اللازم ، وجاءت الجذبة اسرع واشد مما ينبغى فوقع فمى
على فمه واصطدم الانفان

فلما افاق من دهشته ، قلت له على سبيل الاعتذار ،
وانا اتلظ وامصمص بشفتى :

« لامؤاخنة ! لقد اردت ان اقبل انفك ، ولكن التدريب
ينقصنى . على كل حال ، الخيرة فى الواقع . السلام عليكم . .
وذهبت أعدو ولحقت باخوانى وهم يهيمون بالعودة الى وقد
توهموا لبلاهم اتنا اشتبكنا فى مصارعة .



بين مكة والكهنة

اشتريت وأنا جالس في « دار الضيافة » ، أن ادخن « نرجيلة »
او « شيشة » كما يسمونها في مصر ، ولست من هواةها ، ولكني
افتقدت منظرها في مكة ، وكنا في جدة ، كلما دخلنا في بيت
يحيثوتنا بعدد من هذه النراجيل على اشكال شتى وحجوم مختلفة
والوان عدة . فمنها ماهو من الفضة او المعدن المنقوش أو
المطلي بالذهب . ومنها القصير والطويل ، والذي فيه صنعة والسادج
الغفل ، والذي خرطوميه من المخمل الأرجواني أو الأخضر ، الى
آخر ذلك بما لا مَرَجِب للتقصي فيه . واهل جدة يستعملون
للنرجيلة طباقا معالجا بالعنبر ومائة مادة اخرى لم أسمع بأسمائها
من قبل ، تجعل له أرجأ قويا وتترك المرء - على ماسمعت
- بحلم .

ولم أفهم لماذا تكثر النراجيل في جدة ، ولا أثر لها في
مكة . وخطرلى - على سبيل التعليل - أننا هنا ضيوف الحكومة
والحكومة لا تدخن ولا تسمح بالتدخين ، على الأقل في
حضرتها ، وفي دورها . غير انى لم استرح الى هذا التعليل ، وقلت

إن الأعيان الذين يحفون بنا كان يسعهم ان يقترحوا علينا أن
يحيثونا واحدة ، فانا مصريون ، وما لا يجوز للـكى جائز
للمصرى ، ثم انهم يدخنون السجاير فلم لا يتخذون النراجيل ،
وكله تدخين ؟ وعلى ذكر السجاير أقول إن القوم فى الحجاز
لا يعرفون منها سوى صنف واحد رخيص ردىء هو بعض ما يصنعه
ويصدره اليهم « ماتوسيان » . وقد يكون فى رخصه شك ، ولكنه
ردىء على التحقيق ، يتخذ السائق كما يتخذ الوجيه السرى ،
فالديموقراطية كما ترى بخير هناك ، وابرز عناصرها وأقوى مظاهرها
هو « ماتوسيان » .

واعود الى ما استطردت عنه ، أعنى الى النرجيلة ، فأقول انى
اشتقت ان اضطلع على واحدة من هذه الحشايا الوثيرة وأتكى
بكوعى على حسبانه صغيرة وان أضع رجلا على رجل وأدنى خرطوم
النرجيلة من شفتى وارسل الدخان الكثيف الى رثتى ومعدتى بل الى
اخمص قدمى ، ثم اردته من فمى وانبى وعينى واذنى وانفجر بالسعال
القوى كأن بركانا انطلق من جوفى ، واصل بعد ذلك بضع
دقائق والدخان يخرج من مسام بدنى كلها كأنى بيت من الخشب
اندلعت فى جوفه نار الحريق ، كما رأيت اهل جدة يصنعون .

ولسكنى ضبطت نفسى ورضتها على الحرمان من هذه المتعة
البريئة ، كما رضت شيطانى على الكف على ابتغاء الويسكى ، وآلمنى

ذلك - كما يسهل ان يدرك القارىء بغير عناء - فرأيتنى أناجى
نفسى واعزيتها بأن أهل جدة مدللون على خلاف أهل مكة - هناك ،
اى فى جدة ، يحتلى المرء مظاهر الترف والنعمة ، ويحس ان للقوم
دلالا على الحكومة - او دالة إذا شئت - وان الحكومة توليهم
من الرعاية والمجاملة والتسامح ما ليس له مشبه فى مكة ، وتطلق لهم
فى امور نصيبها منها فى مكة التشدد . ولقد قضينا فى جدة أياما لم
نشعر فى خلالها بأن للحكومة وطأة تحس ، ولكن أثر الحكومة
ووجودها ملموسان فى مكة فى كل مكان .

وقد أكون أولا أكون مبالغا فى هذا الذى عزيت به نفسى
عن حرمانى لذة النرجيله ، ولكنى أعتقد أنى غير مخطئ جدا فيما
شعرت به من الفرق بين الحالتين فى جدة ومكة من حيث سلطان
الحكومة ، فان قائم مقام جدة أى حاكمها ، تاجر ، وهو يجمع بين
التجارة وبين أعمال وظيفته . وخليق بالمصرى أن يعجب لهذا
وأن يرى فيه شذوذاً عن المألوف فى بلاده حيث لا يؤذن للموظف
أن يشتغل بالتجارة . ثم أن من الحقائق التاريخية أن الجيش
السعودى دخل مكة بعد فتح الطائف من غير أن يتلبث أو يتلکأ ،
ولكنه لم يقتحم جدة بل أقام حولها وعلى مسافة بعيدة عنها يضرب
عليها حصاراً خفيفاً لئلا يمنع أن يتصل ما بينها وبين مكة .
ولعله فعل ذلك حتى لا يقطع المؤن عن مكة ، ولكن من المحقق

أن الدافع الأول الى ايثاره الحصار واجتنابه أن يحاول فتحها عنوة
أن في جدة قنصليات أجنبية ، وقد خشى السعوديون أن تصاب
دورها أو أحد رجالها بسوء فتتذرع إحدى الدول بذلك وتتخذ
منه مسوغا لاحتلال جدة أو غير ذلك مما يجرى مجراه ، فبقى
الجيش محيطا بجدة شهوراً حتى نفذ المال وانقطعت موارده عن
الملك السابق على بن الحسين ، وتأخرت رواتب الجند وفشاعليه
الأمر ، فسلمت المدينة وأبحر منها على بن الحسين على بارجة
بريطانية محتفظا من كل ملكه الذي نزل عنه « بسيارته وسجانيده
وخيله » ؟ ؟

وكأنى بوجود الأجانب في جدة قد جعل لها مع الأسف
مركزاً خاصاً وبسط عليها ضرباً ملطفاً من الحماية العامة وجعل
الحكومة تتخذ حياها مسلكا هو في جملة ألبن من مسلكها في
البلاد الأخرى . ويقينى انه لو كانت الحكومة السعودية اقوى مما
هى وأوفر عدة وأتم سلاحا واقدر على الدفاع عن شواطئها وثغورها
لاختلف الحال وتغير الموقف ، ومن اجل ذلك يتوخى جلالة
الملك ابن السعود السلم ويؤثرها على الحرب والنزاع ، وذلك
ليتسنى له ان يصلح أموره ويرتب البيت ، كما يقول الافرنج ،
ويعالج مشاكله ويوطد حكومته ويقويها ويباشر ما لا مفر منه
من وجوه الإصلاح على قدر ما تسمح بذلك موارده .

وقصدنا بعد ان استرحنا الى وكالة المالية ، ويتولاها نجدى قح ، قال لى المستر فيلبي أنه من امهر الرجال واذكاهم واحذقهم فى سياسة المال ، وغرفته بسيطة وفيها مكتب اجلس انا فى مصر الى واحد أنخر منه وأجمل ، وهناك تفضل سمو الأمير فرد لنا الزيارة وأذن ان نصور معه ، ثم رغبت الحاشية ان تصور هى ايضا فكان لهما ما ارادت . والنجديون يسمون الصورة الشمسية « العكس » ولا يرون فى التصوير بأسا ولا يكرهونه كما كنا نسمع .

وفى وكالة المالية القيت خطب ترحيب - لا اذكر الآن بمن على وجه التحقيق - وتهنئة للأمر وجلالة والده بلا أدنى ريب . وهناك ايضا جىء باثنين من الحجازيين ، هما موظفان فى حكومته وعملهما طبع « طوابع البريد » ، فقدمهما الوكيل الى سمو الأمير واطلعه على انموذج من الطوابع التى عملت تذكارا لهذا اليوم - يوم المبايعة .

وزرنا بعد ذلك المستشفى وهو رحيب يسع مائتى مريض ، وبه أقسام شتى للجراحة والأمراض الباطنية ، وأمراض النساء وغيرها ، وفيه اطباء مصريون ، وبئر ارتوازية حديثة تمده بما يحتاج اليه من الماء ، ثم قصدنا الى دار الكسوة التى اسلفت الكلام عليها ، ومن ثم الى التكية المصرية وهى تؤدى واجبا انسانيا جليلا

وجاء وقت الغداء فتناولناه فى دار الضيافة على الطراز الأوروبى
أيضا ، ولشدهما تمنيت لو نأكل مرة على الطريقة العربية أو البدوية
ولكنهم فى الحجاز أبوا ذلك علينا وضمنوا بمتعته ، واحسبهم
توهموا ان اطعامنا على الطريقة العربية غير لائق ، أو ان ذلك
ينطوى الى شئ من الاستخفاف بنا ، أو هو ينافى ما يقتضيه
واجب الأكرام .

ثم ذهبنا الى السوق ، وهو على المسعى ، وقد كرهت ان أرى
الدكاكين فى بناء الحرم نفسه ، وملنا الى حارة ضيقة شبيهة بخان
الخليل فى مصر ، وفيها كل ما فى الخان ، والتجار فيها خليط من
أهل مكة والهنود والفرس وغيرهم ، وأكثر ما فى السوق هندى
أو فارسى ، ودخلنا دكان هندى طويل له مساعدان ، فزاغت
أبصارنا وضلت عيوننا بين الطرف المعروضة وكان كل امرئ
يتكلم ويطلب شيئا ويسأل عن ثمنه ، والمساعدان يقدمان
ما نطلب ويحيلان من يسأل عن الثمن الى الهندى الطويل ، ولم يكن
معى ولا مع زميل لى مال ، فقد خافنا ما معنا فى جدة ، فاقترضنا
من اخواننا ، ولم تكن الأثمان معتدلة ولا الحساب بالنقود
الحجازية بالذى يسهل فهمه ، ذلك أن الجنيه المصرى يساوى عشرة
ريالات حجازية ، والريال عشرة قروش ونصفه خمسة وهكذا ،
ولكن الاطراد يقف هنا ، فاذا ذهبنا نحسب الجنيه بالقروش

جدته يساوى شيئاً عجيباً : مائة قرش و بضعة قروش أخرى
تكون تارة اثني عشر قرشاً وطوراً أربعة عشر ، وما أظن به الا
أن قيمته بالقروش تضطرب تبعاً لحالة الجو ، فما في مكة ولا في
جدة بورصة ، وإذا كانت القيمة ثابتة لا تتغير وكنت أنا المخطئ
بالذنب للتجار وليس لي ، فقد كنت أجد قيمة الجنيه عند تاجر
غيرها عند سواه ، وبالتفقق أني كنت أتوغل في السوق فالفيت
لقيمة تهبط بعد كل خطوتين قرشاً ، فخفت اذا أنا مضيت في
طريقي داخلاً في السوق ألا أدنو من آخره الا وقد صار الجنيه
نصاصة ورق كالمعاهدات الدولية ، بل خفت اذا أنا بلغت نهاية
لسوق أن أجد أني أصبحت مديناً !! لذلك ارتددت بسرعة
وليت خارجاً - لا هارباً - الى أول السوق ، وفي يدي جنيه منشور
- مما اقترضت - ألوح به للتجار وأصبح رافعا القيمة بعد كل بضع
خطوات :

« ألا دو ! ألا تراه ! يا بلاش ! بمائة وعشرين ! ألا دو !
بمائة وخمسة وعشرين »

فلو طال السوق لرجوت أن أفيد الغنى أو أشتري مكة كلها
بجنيهي ! ولكن التجار أشفقوا وخافوا مغبة هذا التقدم فوقفوا
في وجهي بردوني الى داخل السوق ويشورون في وجهي كما يفعل
لناس ليصدوا جواداً جامعاً ! وتنهت الحكومة الى الخطر المحقق

بعاصمتها فأقبل على واحد من كبار رجالها يقول :
« لقد ركب الأمير فهل لتلحق به »

ولكنى كنت مشغولاً بفرصة الغنى التى أتاحها لى ارتفاع
قيمة الجنيه فى أول السوق وانخفاضه عند آخرها ، فلم أعبأ به
ومضيت أصبح :

« قبل أن نركب ! ألدو الأثرية ! أبيع بمائة وأربعين !
هل من مزيد ؟ بمائة وخمسين ؟ »

فجذبنى الرجل وفى وجهه كل أمارات الفزع والارتياح
وصاح بى :

« يا أخى أجول لك ! الأمير ركب ! يجب أن تلحقوا به لأن
المسافة طويلة »

فأدركت أنه يريد أن يصرفنى عن ربح حلال وقعت عليه
بذكائى ، فتحيته عنى وانطلقت أعدو الى أول السوق ثم وقفت ألهث
وقدرت فى نفسى أن تكون القيمة قد بلغت عشرة آلاف قرش ،
وهممت باستئناف المناداة وإذا بالقوم يحملوننى ويضعوننى فى السيارة !
وانطلق بها السائق كأنه يفر من الموت ، فقعدت وأنا أقول
لنفسى : « أن هذا ليس من الانصاف فى شئ ! وسأظل ما حييت
أطالب الحكومة الحجازية بما أضاعت على وبالتعويض أيضاً ! »

ولن يضيع حق وراءه مطالب . . وغلبني النعاس في
الطريق الى جدة واستغنيت بالأحلام عن حقيقة ما فاتني —
كذبى أبداً

والكنندرة قصر على دقائق من جدة ، وفيه نزل حلاله الملك
عبد العزيز لما سلمت ، واستقبل أعيانها وممثلي الدول فيها قبل أن
يدخل جدة في اليوم التالي ، وفي هذا القصر أقيمت حفلة الشاي
التي حضرها الأمير وسبقنا سموه إليها ، ولا عجب . فان سموه يركب
الرولزرويس ولا يتلصكاً في الأسواق ولا يريغ الغنى من وراء
اضطراب قيمة الجنيه بين التجار ، ونحن نفعل ذلك — ولنا العذر
— ونركب سيارة يابى سائقها « صابر » أن يسرع بها لئلا يفسدها
لأنها جديدة ، ولأنه هو على ظرفه وفصاحته حنبلى جداً .

ولا حاجة بي أن أقول شيئاً عن الشاي فانه ككل شاي ، وقد
شربناه واقفين — كل نحو عشرين الى مائدة مثقلة بأباريق الشاي
واللبن وألوان الفطائر واللمائز والولائق والرصائع ، وكان يمثلو الدول
يحفون بالأمير ، والقائم بأعمال المفوضية البريطانية وموزير
الروسيا المفوض يتنافسان على الخطوة عنده ويتسابقان الى اكتساب
وده . أما نحن الذين لم يكن لنا من عمل أو هم في الحجاز سوى بطوننا ،

فقد آثرنا مائدة أخرى ليسعنا أن ندخن كما نشاء ، وقد حمدنا
لهذين الممثلين المتنافسين أنهما شغلا الأمير عنا بالحاحهما عليه
ومطاردتهما له .

ثم خرجنا لنشهد عرض الجيش ، في الفضاء الذي أمام القصر ،
ووقف سمو الأمير وأدنانا من صفه لتيسر الرؤية ، فمر المشاة
النظاميون في ثياب الخاكي ومعهم أسلحتهم المختلفة ، ثم تلاهم من
سميتهم حينئذ الباشيزوق وأنا أعني بهم البدو ، في ثيابهم الفضفاضة
المختلفة الألوان ، وكانوا على كونهم بدوا يمشون صفوفًا منتظمة ،
وجاء بعدهم الفرسان ثم الهجاة صفوفًا متراسة لا تلتوى ولا تتعوج
ولا تختلف كسوتها ولا يسبق جل جملا . وعليها « الرجاجيل »
كما يسمون « الرجال » ، مثقلين بأدوات الكفاح ، وأعقب
هؤلاء المدفعية بأنواعها من مدافع رشاشة وأخرى جبلية أو
للبيدات أو غير ذلك مما لا أحسن بيانه وتفصيله ، فما أعرفني
رأيت من أنواع السلاح إلا ما يلعب به الأطفال في الأعياد ،
ولقد كنت في الحجاز كلما رأيت رجلاً مدججاً بالسلاح أراني
أدنومنه وأمد يدي ، وقد هممت أن ألمس سلاحه وأتحسسه بكفي
... فلو لا الخوف من أن يظنوا بي أني أريد السرقة أو الخطف ،
لأمتعت نفسي بلمسه .

وأبصرنا من بعيد محملاً صغيراً مقبلاً علينا فعجبت لهم كيف
يعدون الحمل المصرى صنماً ثم يتخذون محملاً مثله ! وأشار
الأمير بيده إشارة خفيفة لم يدرك أحد منا وقتئذ معناها أو المراد
بها ، وحسبناها أمراً بأن يكر الفرسان على نحو ما يفعلون فى
الحرب ، فقد عادوا واحداً فى أثر واحد يخطفون الأرض بخيلهم
ويتصايحون وقد رفعوا الرماح أو صوبوا البنادق أو
شهبوا السيوف . وأشهد أن مناظرهم كانت مزعجة وأصواتهم
مفزعّة ، ولورآهم القارىء وهم يعدون بجيادهم ويطلقون البنادق
من وراء ظهورهم ويطعنون الهـواء بحراهم وشعورهم منفوشة.
لحسبهم بعض الجن .

وصفق الناس وانتفتت الأمير باسماء ودار ليرجع فسألت واحداً

« والمحمل ؟ لماذا لم نره ؟ »

فقال : « لقد غاب »

قلت : « غاب كيف ؟ »

قال : « لم يبق له أثر »

قلت : « ماذا تعنى ؟ »

قال : « أمر سموه به فأبعد »

وعلمنا بعد ذلك أن سموه كره لنا أن نرى هذا الحمل بعد أن

انقطع الحمل المصرى، وكان أحد التجار قد صنعه وكساه من تلقاء نفسه فلما لمحّه الأمير أوماً الى حاشيته أن يردوه فأخطأوا فهم مراده فحملوا عليه وحطموه ومرقوه . فكأنه لم يكن !
الى هذا الحد كان سمو الأمير دقيقاً فى مجاملتنا ومراعاة إحساسنا

وقيل : اذكروا أنكم مدعوون الى مأدبة عشاء فى قصر الكندرة وأن هذه المأدبة رسمية تقيمها وزارة الخارجية أو إدارتها ، وأن سمو الأمير فيصل سيحضرها ، وإن ممثلى الدول الأجنبية سيشهدونها كذلك . فسالت عن موعد هذا العشاء فقالوا الساعة الثالثة بالحساب العربى ، فتناولت ورقة وقلما وألقيت نظرة على ساعتى الافرنجية وشرعت أحسب . ولا أكنم القارىء أنى أخيب خلق الله فى الحساب . ولقد غلطت وزارة المعارف (المصرية) مرة - منذ نحو عشرين سنة - فكلفتنى أن أدرس هذا الحساب ، فاعترضت واحتججت ، فما أجدى عنى اعتراضى شيئاً ، فقصدت الى « ناظر ، المدرسة الخديوية التى نقلت اليها - وكان انجليزياً - وقلت له : « إن وزارة معارفنا تعتقد أن كل امرئ يصلح لكل شئ » ، ولكنى عرف من نفسى أنى لأصلح لتعليم الرياضة عامة والحساب

خاصة، وأصارحك أنى لأصدق أن واحداً في واحد يساوى واحداً « هذا » كما يقول شاعر عربي « كلام له خبيء » ، معناه ليست لنا عقول « وقد تكون أو لا تكون لنا عقول ، هذه مسألة خلافية ندعها الآن ، ولكن المحقق عندي أن العلوم الرياضية وفي جملتها هذا الحساب لا تدخل في دائرة عقلي ، فهل لك في عوني على ما أريده ؟ »

فضحك وقال : « وماذا تبغى ؟ »

قلت « تعفيني من التدريس للفرق العالية ، وتقنع بأن تكل الى تلاميذ الفرقة الأولى ، أعني الحاصلين على الشهادة الابتدائية في هذا العام ليتسنى لي أن أحفظ الدرس أولاً فأولاً ، ثم ألقيه عليهم ، فتتعلم معاً ، وفي خلال ذلك تبذل وساطتك لتردني مدرس ترجمة كما كنت

فسرته صراحتي ووعدني خيراً ، وشرعت في العمل ، وكنت أحفظ الدرس جيداً وأراجع زملائي ثم أدخل على التلاميذ وألقنهم ما حفظت ، وقد وفقني الله في الهندسة والجبر ، أما الحساب فأعوذ بالله منه !! كنت أخطئ في كل مسألة أطرحها على التلاميذ ، ولم أكن أكتهم أنى أجهل منهم وأن الذنب للوزارة وليس لي ، وإن الوزارة هي المسئولة عن خلطي وتخطي ، وانصف التلاميذ فأقول انهم قبلوا عذري واغتفروا لي ضعفي وحفوني بعطفهم ولم ييخلوا

على بايضاح مايشكل على وهدايتى الى الصواب حين أضل ، وكنا
أحيانا - اذا استعصى عليهم افهامى طريقة الحل - نقضى بضع
دقائق فى ندب سوء حظى وحظهم ، وربما قال الواحد منهم وقد فاضت
نفسه بالعطف على والمرثية لى « كيف ترتكب الوزارة مثل هذا
الخطأ الشنيع فتعهد الى تدريس العلم الى جاهل به ؟ »
فيحمر وجهى أو يصفر - لا أدرى فما كانت أمامى مرآة - وأقول
بلهجة الصابر على قضاء الله فيه

« أنا عارف ؟ قل لها ياسيدى ! الأمر لله والسلام »

ولم ينقذنى الا مفتش انجليزى جاء على عادته ليشرف على
سير الدراسة ، فعلمت أنه مع الناظر فى غرفته ، وكانت مجاورة
للغرفة التى أنا فيها ، فأوصيت الخادم - أو الفراش كما يسمونه - بأن
يدعوه الى ، حين يخرج ، وفتحت الباب على مصراعيه ، فلما دخل
على رحبت به واحتفيت بمقدمه وسرت به الى مقعدى ومكتبى ،
وهناك سلمته راسة التحضير وكراسة الاسماء ، وأصبع الطباشير
ومسحة السبورة وقلت له

« التلاميذ أمامك ، ومعك كراساتى وأدواتى ، فالسلام عليك
ورحمة الله وبركاته » وخرجت ، فخرى ورأى وأدركنى أمام غرفة
الناظر وقال :

« ان هذا جنون . فعد الى فرقتك »
فقلت « جنون ؟ وهل كنت تنتظر أن أظل عاقلا ؟ لقد صارحتكم مائة مرة بانى حمار ، فماذا تريدون ؟ ان لى ذمة ، وذمتى لا تقبل أن أخضع على التلاميذ المساكين سنة من أعمارهم »
قال « ولكنى اكدت لك أننا لا نجد مدرسا للرياضة فيحل محلك . فانتظر حتى نجد واحدا ثم نعيدك الى الترجمة »
فقلت : « كلا ! تتولى أنت التدريس حتى تجدوا المدرس . وانا مستعد أن أقوم عنك بمهمة التفتيش »
فضحك ، وضحك الناظر وكان قد خرج على صوتنا ولاأطيل :
أقنعانى بالعود الى فرقتى على ألا يطول عذابى إلا أياما معدودات ،
وقد كان .

وقد قصصت هذا التاريخ القديم ليعذرني القارىء اذا كان قد عزنى أن أعرف الوقت بالحساب الافرنجى ، ولقد ملأت والله الورقة كلها بالأرقام لأعرف كم تكون الساعة بالحساب الافرنجى فى الحجاز اذا كانت الثالثة بالحساب العربى فى الحجاز أيضا ، فالفيتها تكون كل ساعة ما بين الأولى والرابعة والعشرين الا التاسعة مساء كما زعموا ، وقد اتفق مرة أن انتج حسابى الساعة التاسعة ولكنها كانت التاسعة صباحا ؛ فمزقت الورقة يائسا ورميت القلم من النافذة .

وملت الى واحد وهمست في أذنه .
« أرجو أن تصدقني ! كم ساعة باقية لنا قبل هذه المأدبة ؟ »
فاخرج ساعة ونظر فيها وقال « ساعتان ونصف »
فقبلته بين عينيه وقلت له « انك آية من آيات الله في الذكاء
وحدة الذهن . ولو كان الحسد في طبعي لحسدتك . فان من
المدحش ولا شك ان تستطيع عمل كل هذا الحساب المضني في
ربع ثانية ! فتح الله عليك ! فتح الله عليك ! »
وخرجت أعدو الى غرفتي . وقفت أمام المرأة وقلت لخيالي فيها
« اسمع ياما زنى . ان هذه المأدبة رسمية وسيحضرها وزراء
الدول وقناصلها فينبغي ان تكون فيها فخراً لبلادك وعنواناً على ما
بلغته من الحضارة والرقى ، لا عاراً عليها وسبة لها ، فالبس ثياب
السهرة وان كانت من طول ما طويت في الحقيبة قد تجعدت
وتثنت وصارت كالوجه الذي غضنته الشيخوخة ، ولكن هذا حرجي
بأن يغتفر في الحجاز . وعندك في هذه الحقيبة كتاب في آداب
السلوك في المجتمعات فأخرجه وادرسه بسرعة ، فان في ساعتين
الكفاية ، أفهمت ؟ اذن فالى العمل ! »
وتناولت الحقيبة وحططتها على السرير وفتحتها بسرعة
وأخرجت بذلة « الاسموكنج » ، والقميص الأبيض والرباط
الأسود ، وسائر ما تتطلبه هذه البذلة ، ونضوت ما على بدني من
التياب ، ثم تذكرت الكتاب فأخرجته وقعدت على السرير أدرسه

وأنا نصف عار وأجريت عيني في الفهرس حتى استوقفني هذا
العنوان

« فن الانحناء »

ففتحت الصفحة التي يشير اليها الفهرس وقرأت وأنا كالمسحور ،
ما ترجمته

« ان الانحناء ، ولمز يكون وكيف يكون وفي أى وقت يكون ،
فن قائم بذاته ، « واتقان ذلك وتجويده ، والحدق فيه والاستاذية ،
أكبر ما يمتاز به الرجل المهذب »

فخفق قلبي طربا وشاع في السرور علوا وسفلا ، وبعد أن
قضى بدنى وطره من الوثب والقفز - او الرقص اذا آثرنا الرقة
في التعبير - عكفت على الكتاب لالتهم منه هذا الفن الجليل
فقرأت

« وأول ما يجب على المرء ، أن يكون وضع القدمين كأول
وضع لهما في الرقص »

فكفأت الكتاب على ركبتي وذهبت أحضر الى ذهني وأتمش
هذا الوضع الأول في الرقص ، فطافت برأسي صور شتى للاقدام
بما كنت أراها في المراقص المصرية ، غير أنه ما من صورة كانت

تشبه الأخرى ، فألححت على خيالي وكددت خاطري وحصرت ذهني في هذا الموضوع وطردت عنه كل ماعداه حتى صار رأسي وليس فيه الا أحذية « ضاحكة اللاءاء » تروح وتجيء وتنساب تحت السيقان ال..... »

وخفت ان أترقي في التصور من الأحذية الى ما فوقها فيتم فساد العمرة التي أفسدها المطوف وأشياء أخرى حدثتك عنها فيما أسلفت عليه القول .

ثم قرأت

« وترفع اليد اليسرى بخفة ورشاقة وتوضع أطراف بنانها على الصدر فوق القلب ، ثم يحني الرأس ويليه الجسم مما يلي الردفين وتكون اليد اليمنى في أثناء ذلك ترسم في الهواء خطا مقوسا بلباقة وإناقة » ، وما ينبغي توخيهِ والتدقيق فيه والحرص عليه أن « يكون تعبير الوجه فاتنا على قدر ما يستطيع صاحبه . ونظرة العينين سابية ساحرة . » أما درجة الانحناء فرهن بمقام الشخص الذي له التحية ، الخ الخ

وطويت الكتاب وأطرقت ، فما كنت أظن الانحناء يمكن أن يكون عملا محمدا الى هذا الحد ! ومن لي باللباقة ومن أين أجيء بالرشاقة إذا وسعني ان أؤدي هذه الحركات ؟ ان كل ما أحسنه هو ان اهز رأسي هزا متتابعا — من أعلى الى أسفل ، أو

من اليمين الى اليسار - إذا أردت الاعراب عن الموافقة أو المخالفة
كسلا منى عن النطق بنعم أولا ، وقد ألقى فى الطريق بعض من
أعرف وتكون بينى وبينه مسافة تمنع الكلام فأحاول ان
أومىء اليه برأسى واذا به يتجههم ويحددجنى بالنظر الشرر ، فاعجب
لسوء أدبه فى رد التحية ، وقد تبينت فيما بعد أنى لم أكن أهز رأسى
بل أحرك حاجبى فكان الناس يحملون هذا منى على عمل السخرية
ولو علموا لعذروا .

وقلت أتدرب ، فوثبت الى قدمى واستويت واقفا أمام المرأة
وقلت وانا ابتسم لخيالى فيها وانحنى :

« ياسيدى الأستاذ المازنى انى أحبك وأؤكد لك انى خادمك
المطيع وأدعو لك بطول العمر ، ثم اعتذلت بسرعة فقد شق
على منظرى ، وكنت لا أزال نصف عار ، وعجلت بارتداء
الاسموكنج حتى اذا فرغت من ذلك خرجت انخطر وانحنى بعد
كل خطوتين او ثلاث انحناء عميقا كأنى مائل بين يدى ملك
الملوك على الأقل أو أفتن امرأة فى العالم واذا بطربوشى تكبسه
على رأس بطن الخادم فتراجعت قليلا لأفسح لنفسى ورميت اليه
انحناء عميقة وقلت وعلى فى ابتسامة لم يخالجنى شك فى عذوبتها
بوسحرها

« سيدى انى اعتذر وأحيى فى شخصك فضائل الطاعة

والاخلاص والأمانة »

فارتبك المسكين وجحظت عيناه وتصبب العرق البارد من جبينه وصار يتلفت يمنة ويسرة كالذى يبحث عن نافذة يثب منها حتى اذا وقعت عينه على الباب ولى هارباً ، فتلبثت هنيهة أصالح من شأنى وأرد طربوشى عما جار عليه من وجهى ولما لم أجد أمامى اومعى أحداً من خلق الله استقبلت الباب والقيت إليه الحناء بارعة واذا باصوات من خلفى تصيح بى :

« إيه ده بس فى عرض النبى ؟ طلعت البلا على جتة الخدام ، فدرت على عقبي وجدت عليهم بانحناءة متقنة وقلت وانا أرسم ييمناى قوسا مزدوجا :

« سادتى . انى عبدكم الخاضع المطيع وخادمكم الوفى الأمين ، فقال أحدهم وهو يشور بكلتا يديه كأنما يطرد عن وجهه جيشاً من الذباب

« خادم إيه وزفت إيه ؟ هل جننت حتى تنحنى للباب وللخدم والهواء ؟ ما معنى هذا ؟ »

قلت « عفواً ، ولكنى أظن المعنى واضحاً جداً . وكل ما فى الأمر أن الشوق الى الانحناء لج بى ولما لم أجد خيراً من الخادم او الباب لم أر أن هذا من حقه أن يحول دون إطفاء حرارة الشوق الذى اكابده ، فأما وقد تفضلتم على بالظهور لى فى الوقت المناسب

فاسمحوا لى أن أقوم بتجربة أخرى على مرأى منكم وأرجو أن
تجعلوا بالكم على الخصوص - الى سحرا بتسامتى فانى أريد أن
اطمئن عليها »

وردت قدمى اليسرى خطوة ورميت الى كل منهم انحناءة
باهرة ، فوجموا قليلا ثم راحوا يدقون كفاً بكف وقال أحدهم
« هذا جنون مطبق »

فقلت « كلا ! ولكن عندى كتابا يؤكد واضعه ان الانحناء
البارع اكبر ما يمتاز به الرجل المهذب . وانا مستعد أن أعيركم
إياه فان العلم بما فيه ينقصكم على التحقيق . »
ولا أطيل . عراهم سهوم الحسد فجلسوا صامتين برهة ثم
نادى أحدهم الخادم أو صفق له على الأصح وقاللى قبل أن يدخل
الخادم

« لا أدرى من أين تجيئ بهذه الكتب ، وان كنت عظيم
الشك فى وجود كتاب كهذا ، ولكن الذى أريده ان الخادم قد
ارتاب فى عقلك فارجو - ألح عليك - أن لا تفعل امامه شيئاً
وكفى ما فعلت »

فلم أعن بالرد عليه وشربت القهوة التى طلبها فى صمت ، فقد
كنت راضياً عن نفسى معترأ بما أحرزت دونهم من براعة وحنق

والجو في الليل يتردد في جدة ، وكانت الساعة قد قاربت
التاسعة مساء (بالحساب الافرنجى) على مازعموا حين أعدت لنا
السيارات لركوبها الى الكندرة ، فقلت لسائقنا الجديد وكان
هنديا - فقد هجرنا صابر وملنا وجفانا بعد مكة - انزل الغطاء
فانى أريد ان تكون السيارة مكشوفة ،

فصاح زميلى « ولكن الجو بارد والرياح عنيفة »
فقلت « اسكت انت من فضلك . أتريد أن نحرم أهل جدة منظرنا
فى ثياب السهرة ؛ انه منظر لا يروونه الا فى الندرة القليلة والفلتة
المفردة ، وحرام علينا ان نضن به عليهم »
فقال « يا أخى ان الطريق صحراء لا ناس فيه ولا شجر ،
فاصنع معروفًا ودع الغطاء مرفوعا ، »

قلت « كلا انا أيضا لا ألبس الاسموكنج كل ليلة ، وليس من
الانصاف لى ان أرتديها واتحمل عذاب هذه البنية (الياقة)
الناشفة وان اختنى وأتوارى عن العيون . اذا لماذا نجشمت كل
هذا التعب ؟ »

ولا أحتاج أن أفول إن زميلى فى السبارة اقتنع بسداد رأيى ،
وانا ركبنا السيارة مكشوفة وخرجنا بها من جدة الى الصحراء
فى طريقنا الى الكندرة ، ولم تكن المسافة طويلة فقد كنا نرى اضواء
القصر بعد أن جزنا سور جدة ، وكان القصر يعجب بالناس ويزخر

بالضيغان ، فجعلت اطوف بالحجرات الغاصة بالخلق وأعجب اين ترى سناً كل وليس فى القصر شبر خال؟ وضحككت فى سرى وقد تذكرت قول المتنبي فى كافور

جوعان يا كل من مالى ويمسكنى

كما يقال عظيم القدر مقصود !

وخطر لى أن هذا حالنا ! ندعى مئات الى القصر ونحجز فيه ولا طعام ! واستحييت أن أسأل وأنسانى القلق على العشاء ، والخوف من عض الجوع ، ما أتعبت نفسى حتى مهت فيه - أعنى الانحناء - ولكن وجهى كانت مرئسمه عليه ابتسامة تشجع الناس على المصارحة فدنا منى واحد وقال

« الا تحب أن نرى مكانك من المائدة ؟ »

وهما تذكرت الفن الذى حذقه فتراجعت وانحنيت ثم استويت وقلت

« سيدى . انى نحت أمرك »

فحملق فى وجهى وتلعثم . ولا عجب فما له عهد بمثل هذه الاستاذية . ولم يزد على أن قال « تفضل »

فجذت عليه بانحناءة أخرى أدق وأبرع وقلت

« سيدى . انى ارجو أن تنفيل شكرى الخالص الذى يفيض به قلب

يعرف الجميل ولا ينكره و »

فهروا الرجل ، وبدأ إلى أن الحزم أن أهروا وراءه لئلا يهرب
أو يختفي في الزحام ، والدنيا كما تعلم فرص ، والضيوف هنا مثات .
وأى طعام يمكن أن يكفي هؤلاء جميعاً ؟

وانحدر دليل الهارب ، من سلم خافى لم أره من قبل ولم أفطن
لوجوده لأن عليه أستارا مسدلة تحجبه ، وانحدرت وراءه إلى
الصحراء ، أو على الأصح إلى رقعة اقتطعوها منها وأحاطوها بسياج
من نسيج الخيشام الموشى وأضاءوها بالكهرباء والغاز أيضاً على
سبيل الاحتياط ، ومدوا فيها الموائد على شكل مستطيل ورتبوا
المدعوين بأسمائهم ، فكل مكانه الذي لا يعدود ، واعتدوا لكل
واحد ما يحتاج إليه من الأطباق والملاعق والسكاكين وغير ذلك
على الطريقة الأوربية ، وأقاموا في قلب المستطيل فوق بشر يسقى
منها القصر ، شبه مسرح زينود بسعف النخيل ورفعوا عليه صورة
كبيرة لجلالة الملك عبد العزيز بن السعود . وجعلوا فوقها
رايتهم وهي « بسم الله الرحمن الرحيم » وعليها سيفان لاشك
أنهما ماضيان . وقد أعجبني ذوقهم في حجب البشر عن العيون
وحيلتهم بالانتفاع بها واستخدامها .

وأن أن يطعمونا ، وكان هذا قد آن جراً قبل ساعة ، فجلس سمو

الأمير فيصل في الصدر وإلى يمينه معتمدو الدول الأجنبية ، وإلى

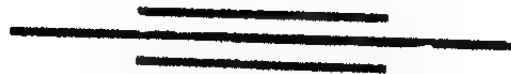
يساره ركي باسا ونحن نتلوه ، وبين كل اثنين منا رجل من كبراء
الحجازيين ، وتوسط فؤاد بك حمزه مدير الشؤون الخارجية ضلعاً
آخر من المستطيل وعلى يمينه ويساره قناصل الدول وفي جملتهم
قنصل مصر وان كان غير معترف به ، وهم يدعونه بصفة غير
رسمية الى الحفلات ويمادبها على الرغم مما بين البلدين من الجفوة
الحكومية المتكلفة التي لامسوغ لها ،

وكان أمام كل نحو ثلاثة من الضيوف - فوق المائدة - كرسي
واطيء عليه طشت كبير غاص بالأرز المحمر المخروط بالصنوبر
والزبيب وما الى ذلك وفوق هذا كله كبش محمر تفوح رائحته المغرية
وتتضرع الى أنوفنا فننظر الى الأمير فلا نراه يمسه فنكف ونتنهد ،
وقد طافوا علينا بتسعة عشر لونا من الأطعمة الشهية حتى اكتظما
جداً ولم نعد نستطيع أن نتنفس ، وبرزت صدورنا وصارت لنا
كروش كروية عظيمة ، وعلى كثرة ما أكلنا ، أعترف اني قمت متحسراً
على الخروف الذي كان أمامي ، ولا أدري لماذا يذبحون كل هذه
الخراف الجميلة ويحمرونها اذا كانوا لا يأكلونها ولا يدعوننا نصيب
منها شيئاً ؟ وقد خامرنا الشك في انها خراف حقيقية كانت قبل
ساعات تشغو وتقول « ماء ! ماء ! » وقلت لعلها رسوم مجسمة على
صور الخراف ، ولكني لم أر أثراً لهذا الفن في الحجاز .

ونحيل الى ان حكومة الحجاز تعتقد أن ضيوفها شرهون ،

والا لتوخت بعض التقصد فيها قدمته من صنوف الطعام ، فان ما
ادبر علينا كان يكفى أمة بأسرها ، على ان العرب جميعا يبالغون في
مقدار ما يطعمون ضيوفهم ، ولعل ذلك راجع الى طبيعة البداوة
وما ورثوه من اخلاقها وعاداتها ، ولكنه اسراف على كل حال ،
ولو كان لى من الأمر شىء لطابت الحجر على الحكومة والناس
جميعا هناك .

وخطب فؤاد بك حمزة فى ختام المأدبة لمناسبة انقضاء عام على
مبايعة ابن السعود ملكا على الحجاز ، فبين ما قامت به الحكومة
السعودية من الاصلاح وما تفكر فيه من وجوهه المختلفة ،
و رحب بالمدعون جميعا وخصنا نحن المصريين بالذكر الطيب
وأعرب عن آمله ان نكون رسل سلام ووئام بين الشعبين
الشقيقين ، فأجابه زى باشا بالنيابة عنا وشكر وأثنى كما ينبغى ثم
حمس فانطلق يخطب بالفرنسية ليفهم عنه الأجانب ، ولم يفته أن
يشبع علينا لانا طفنا بالسيارة ، متخذنا هذا دليلا على أن الاسلام
تسمع لكل ما تجبى به الحضارة ، ونسى - عفى الله عنه - ان طوافنا
بالسيارة كان باذن سمو الأمير فعلى الأمير حسابه .



فى وادى فاطمة:

كان بيتنا - أعنى بيت العوينى - فى طرف المدينة - أعنى جدة - او لعل هذا مبتدأها فما أعرف أن بدايتها وأين نهايتها ، وكل ما أدريه أنه قريب من البوابة المؤدية الى طريق مكة والمدينة ، وأنه - أى البيت لا الطريق - يطل على البحر وعلى ما كان فى عهد الأتراك يسمى « الكازينو » ، وهو الآن مهجور . وكان يومنا الخامس هو الخميس ، وهو اتفاق لم نتعمده . وفى صبيحته احتشد عندنا كل زملائنا اذ كنا على طريقهم . وكان الغداء فى وادى فاطمة ، وكانت السيارات أمام الباب تدور وتلف وتصطف استعداداً للسير ، فجلسنا نشرب القهوة المصرية . - أو التركية كما يسمونها - وتلا غط وتكلم جميعاً فى وقت واحد ولا يصغى أحد منا إلا لنفسه ،

ثم قيل : « تفضلوا » فتفضلنا ، أعنى أن بعضنا وقفوا ثم نظروا الى البافين فألفوهم جلوساً ، فقعدوا مثلهم ، فسئلوا « لماذا قعدتم؟ » فقالوا « حتى يقوم هؤلاء » ، فمضى الداعى يستنهض الآخرين

ويشد أذرعهم وهم معرضون عنه ماضون في كلامهم ، ويكرر لهم دعوته أن يتفضلوا فيقوم الواحد منهم متثاقلا وكأنه لا يعي ما يفعل . ولسانه لا يكف عن الكلام ووجهه لا ينثني عن الاعراض . ثم نسير خطوات فيقف واحد و يواجه الباقيين ويضطرهم الى الوقوف والاصغاء ، حتى على السلم كان هذا يتكرر فكان يتفق ونحن نازلون أن يفف واحد بغتة ويدير إلينا وجهه . ونكون أرجلنا مهبأة في هذه اللحظة للهبوط وأجسامنا مخنية . فنردها - أعني أرجلنا - بسرعة ، ونستوى واقفين فتصطدم الرؤوس بالصدور التي وراءها ، وترتفع الأصوات بالسخط وألفاظ الاحتجاج والاستهجان .. وهكذا ...

وأجلت عيني في السيارات وسائقها ، فاذا (صابر) - ذلك الغلام الحنبلي - قد جفأنا وآثر علينا سوانا ، فترقرق الدمع في عيني وتدلى رأسي على صدري ، فقد كانت صحبته رضية وحديثه شهيا . وهو على الرغم من شبابه اليافع فتى مخضرم انصح هذا التعبير . أعني أنه أدرك جاهلية الحسين وعهد ابن السعود ، فأفاده ذلك حكمة ليست لسنه وكياسة لا تكون مع الشباب . وعلماً بالدخائل واطلاعا على الخبايا ، فقد كان كما أسلفت القول في موسيقى الحرس الخاص بالحسين وبنييه ، وهو الآن عامل في شركة القناعة للسيارات . غفر الله له وعفا عنه فانه

مصرى مثلنا .

وافسحوا الطريق وانطلقت السيارات . وعزاني أن سائقنا الهندي لا يعرف الطريق - ولا العربية - وان (صابراً) الذى هجرنا ، أمره - لأدرى بأية لغة فما فهمت كلمة من حديثهما - أن يتبعه ولا يسبقه . كذلك قل لنا صابر مترجماً ، وأدركت أن فى (صابر) رقة على الرغم من حنباية مظهره ،

والطريق الى وادى فاطمة هو عين الطريق الى مكة ، ولكنه ينحرف عنه قبلها ويذهب يسرة ويصبح بعد ذلك وعراً ، كاه حفر ونقر وصخور وتراب ، وكان الهواء قد أسكرنى فتمت ومن عادنى اذا كرنى هم ان الثمس السلوان فى النوم ، وان اتعزى بالأحلام واضغاثها عن الحقائق ومرارتها ، وهذا من فضل الله على ، ولكم قلت لمن يحلو له أن يهجرنى ويحسب أنه بذلك يعذبنى « اذا كان فى وسعك ان تصدعنى فان فى مقدورى أن اصد عن الدنيا كلها والحياة بأسرها انظر » ثم اضع رأسى على الوسادة واغمض جفنى وأقول بسم الله الرحمن الرحيم توكلت على الله الحى القيوم الذى لا ينام ، وأذهب من فورى الى وادى الأحلام .

ولكننا لم نكد نميل عن طريق مكة الممهدة حتى استيقظت بالشرر يتطاير من عيني ، فقد توهمت أن زميلي ضربنى على رأسى

وكبس طربوشى على أذنى ، وهممت بأن أمسك بتلابيبه - أعنى
بربطة رقبته - وفى نيتى أن اضيقها على عنقه حتى يخنق ، ولكن
الطريق عاجل السيارة بحفرة أخرى ، وإذا بى ارتفع عن مقعدى
- وحدى بلا معونة - وأطير بقدره الله حتى أبلغ السقف ، ثم
انحط كالحجر ، وإذا بطربوشى قد غطى عينى أيضا وهوى الى
أرنبة أنفى . ففهمت . وحاولت ان أخرج رأسى فلم أستطع ، فشددت
الطربوش من زره ، فبقى الطربوش فى مكانه وخرج الزر فى يدي .
فأهبت بزميلي الراكب معى أن يساعدنى . وكان لسوء الحظ نائما .
وكنت أنا بفضل الطربوش لأأراه ولا أعرف ذلك ، فحسبته يتعمد
أن يمنع عنى معونته ، وغازنى هذا منه ، وذكرت مثلنا المصرى
العامى القائل « ضربوا الأعور على عينه قال خسرا نه ، خسرا نه »
فتوكلت على الله ونطحته فى كرشه - فقد كان ذا كرش كمانسيت أن
أخبر القارىء - فهب مذعورا يقول « بع . بع » وأندفعت كلتا يديه
الى كرشه فوقعت على الطربوش - وكنت أهم بنطحه مرة أخرى -
فتزحزح الى آخر المقعد اتقاء للنطحة ، وأحسست أصابعه على
حافة الطربوش مما يلى أذنى ! فجذبت رأسى الى الوراء فجأة وبقوة .
فخرج الطربوش فى يديه مقلوبا فاعتدلت وقلت له

« اشكرك يا صديق . والآن هل معك دبوس ؟ »

فصاح بى « مامعنى هذا ؟ أريد أن أفهم ! حالا ! »

قلت « معناه ان زر الطربوش فى يدى ، وأنه لا يلىق ان
أبدو للناس هـكذا — اعنى بغير زر ، فهات دبوسا واكسب
الشكر من صديقك »

قال وهو مقطب « ولكن هذا لا يلىق . واذا كنت حضرتك
تظن . . . »

فقلت أقاطعه « تمام . لا يلىق أدا . ولذلك ارجو أن تعطينى
دبوسا . ثم ان اسمى ابراهيم افندى عبد القادر المازنى »
فقال وهو يمحط شففيه اشمزازاً
« يعنى حضرتك فاهم »

فاسرعت الى انمام الجملة بدلا منه « . . انى لا أستطيع ان
أظهر بطربوش ليس له زر ، بالضبط ، واسمى ابراهيم افندى عبد
القادر المازنى »

فشور بيديه كليهما وقال « أوه . . . ! ده شىء يجنن ! »

ثم عاد فالتفت الى وقال

« يعنى إزاي حضرتك تنطحنى ؟ عمرى ماشفت كده ! دى

رحله زى الزفت ! »

فقلت « انى أراها على عكس ذلك .. أجمل رحلة قمت بها فى

حياتى ، وارجو أن تقوم بها معا مرة أخرى »

ويظهر انه يئس وفوض أمره لله ولسوء حظه فأعرض عني وهو يقول

« ابق دور على غيرى . »

يقلت ، ان شاء الله وان كان هذا من دواعى أسفى - أعنى فى المستقبل ، وفى أثناء ذلك أرجو أن تعطينى دبوسا»

فلم يعد يستطيع أن يكظم غيظه وسخطه و نقمته وصاح
« دبوس ايه يا احى ؟ هو انا دكان مانيفاتوره ؟ ولا حضرتك
بمتريق ؟ فقلت « معذرة . ليس بي حاجة الى الدكان كلها . انما اريد
منها دبوسا واحدا - أو إبرة اذا أمكن ، بل الابرة خير ، وارجو
ان تذكر أن اسمى ابراهيم افندى عبد القادر المازنى »

فضحك أخيرا بعد ان ادرك مرادى وقال « طيب وحياة
ابوك تبعد عنى بقى يا ابراهيم افندى يا عبد القادر يامازنى »

فانصرف عنه الى السائق واشرفت عليه من ورائه لأرى
هل فى صدره دبوس او نحو ذلك ، ففزغ الأبله واضطرب
وارتفعت يداه عن عجلة القيادة فكادت السيارة تمقلب بنا فى حفرة
لولا ان اسرعت ومددت يدي الى العجلة وحولت السيارة عنها
- أعنى عن الحفرة - .

ولا أطيل . اضطررت أن أحمل طربوشى فى يدي ، وأن
أشكو حرارة الشمس ووقدتها حتى وجدت من يعيرنى دبوسا
أصل به الزر الى عنق الطربوش حتى نعود الى جدة .

ووادى فاطمة واد - كما هو ظاهر بالبداية - ولكنه غير ذى

زراع كثير ، فيه نخيل ولا أعناب ، وفيه موز وباذنجان ، وطماطم
وليمون ، وهلوخية وبامية ، وأحسب هذا كل ما فيه أو أكثره وله
عن يتفرق منها الماء ويجرى في مجرى ضيق يستطيع المرء بأيسر
مجهود أن يتخطاه من جانب الى جانب ، وإذا وضع يده فيه أى في
الماء - لم تبطل الا عقلة واحدة من إصبعه . وهم مع ذلك يباهون به
ويعتزون ، وقد هزرت رأسى أسفا حين رأيته - أعنى الماء -
وقلت لواحد كان واقفا الى جانبي وأنا أقوم بهذه التجارب : « ان
لنا في مصر نهراً عظيماً ينبع في جبال القمر على قول ، ومن الجنة
على قول آخر أظنه الصحيح ، ويقطع في طريقه الى البحر الآف
الفراسخ ، وتستطيع الأساطيل الضخمة ان تغرق فيه اذا شئت ،
ومع ذلك لا يكفيننا ولا نقنع به . ولا تزال بلادنا أكثرها صحراء
بلاقع كما هي هنا . فالحق ان بلادكم أو على الأصح فدا فكم ، تعلم
الزهادة وتروض النفس على القناعة »

وهناك في قلب الوادى رأينا الخيام مضروبة ، واحدة للأمير
وأخرى للاجتماع ، وثالثة لموائد الطعام ، فقد جلبوا الى الصحراء
ادوات الطعام كاملة لا ينقصها كوب من الزجاج ولا سكين ولا
ملعقة ، وقد عجبت لهم كيف استطاعوا ان ينقلوها من غير ان
تتخطم الأنية كلها !

وكان الأمير قد سبقنا ، والمكان قد ازدحم ، وحف ممثلو الدول

بالأمير فحاءونا بكراسى وصفوها أمامه فجلسنا بينه وبين الناس ،
وبدأوا يلقون الخطب وينشدون القصائد بين يديه ، بمتدحون
فيها العهد السعودى و يصفون ما بلغت البلاد فى ظله وبفضله .
وسأنى ان التلاميذ شجعهم اساتذتهم على المبالغة والغلو ، ولم ارتح الى
سماع كلمات « العلى والمجد والقمة والسنام » الى آخر ذلك مما زعم
التلاميذ فى خطبهم ان الحجاز ارتقى اليه ، وقلت لجارلى - وأظنه
كان حجازيا - ان هذه المبالغات السخيفة هى داؤنا جميعاً ، واننا جميعاً
- فى مصر والشام والعراق والحجاز الخ - أحوج الى مواجهة الحقائق
وفتح العيون على الواقع وقياس ما بيننا وبين من سبقنا من الأمم .
وان من الاجرام ان نخدع أنفسنا ونغالطها فى هذه الحقائق ، ومن
الجناية ان تنشئوا هؤلاء الأطفال على التوهم ان بلادهم بلغت أوج
المجد وارتفعت الى قمة العلى وغير ذلك من الكلام الفارغ . وانه
أجدى عليكم ان يعرف كل امرئ مبلغ ما يطلب منه فى سبيل
بلاده لتتهدأ نفسه لبذل الجهد الذى يحتاج اليه ، وضربت له مثلاً
فقلت انى قد أرى شيئاً اتوهمه خفيفاً فأمد اليه يدي لأرفعه وانا
غير محتفل ، ويتفق ان يكون ثقيلاً على عكس ما تصورت ، فأعجز ،
وأخسر وقتاً وجهداً فى غير طائل . ولكنى ، اذا عرفت أنه ثقيل ،
أشد أعصابى وأوحى إليها ان تستعد لجهد عظيم يناسب ثقل الشئ
الذى اريد رفعه او حمله . فيجئ المجهود معادلاً للمطلوب فأنجح .

وهكذا في غير ذلك ، في صغار الأمور وكبارها ، فلا تغشوا
أنفسكم فإن هذا شر ما تسيئون به إليها ، ولا تستهينوا بكلام تظنون
يذهب في الهواء ، فإنه لا يذهب في الهواء بل يتقرر في ثرى النفوس ويرسخ
في العقائد ويستكن في ضمير القواد من حيث لا تشعرون ، وإذا كان
كل مرادكم ان تثيروا الشعور بالعزة القومية ، فان لهذا سبلا أخرى .
ولا خير على كل حال في الفخر الأجوف .

وكان بين الشعراء رجل من الكويت - اذا كانت ذا كرتى لم
تخنى - وشعره سخييف ولكن انشاده بديع وقد كان وهو يلقي
قصيدته الطويلة - يغنى ويمثل ، وأشهد أن صوته صاف خالص
كصوت الفضة ، وأن غناؤه بارع وخال من التخنث والتطرى ، وأن
تمثيله حسن مطابق للمعاني مؤد لها على وجه الاحكام .

وتلاه شاعر نجدى قح أعوذ بالله من القائه ، فليته جاء قبل
الكويتى ، ولكنه أبى الا أن يجيئ قبل الطعام فكاد يصدنا عنه
ويفتر رغبتنا فيه ، ويزمنا في الشعر والأدب والعرب ، بل في
الحياة نفسها فأعوذ بالله مرة أخرى وثانية وثالثة من القائه ، وسأظل
أستعيز بالله منه كلما ذكرته فإنه يفسد على نومي ويسود العيش
في عيني ، ويغشى نفسي ويكرب صدرى ، وقد ضرست أسناني لما
سمعت صوته ، وأحسست كأن الحكة قد شاعت في جلدى - أعنى
الجرب والعياذ بالله مرة رابعة منها أعنى الجرب والصوت - وإني

لأوصى الحكومة الحجازية أن تقطع السنة الشعراء النجديين إذا كانت أصواتهم منكرة كهذا الصوت . فإن البكم خير ألف مرّة . وهذا الصوت - إذا كان له مشبه - خليق أن يغرى الخاق بالفتنة والمرد ويدفع الرعية الى الانتفاض والثورة .

وقمنا الى الطعام بعد هذا البلاء الشعري . وكانت أنوانه - أعنى الوان الطعام لا البلاء - مغرية . وكانت الخراف الشبهة فى الطشوت . تخايلنا . فسألت : هل هى للزينة كما كانت فى مآدبة الكندرة أم للأكل ؟ فضحكوا وقلوا بل الأكل . فالقيت السكين والشوكة . وشمرت كمى ونهضت عن الكرسي وقات لعبد من الواقفين

« ارفع هذه الصحون من أمامى وأفسح لذى القرنين . فانى أراه لا يزال ذا قرنين على الرغم من الذبح والسبخ والشى والتحمير - هات عجل ، يا عبد الله ! » وليسأخنى الأمير . فانى لأحب المغالطة . فلما فعل - أعنى العبد لا الأمير - دفعت بدى فى خاصرة الحروف فلم أكد أفعل حتى نددت عن صدرى صرخة من الطبق العالى الذى يوقظ الموتى فى قبورهم ، وإذا بى أدور على عقبي . وذراعى فى الهواء وأصابعى مدلاة ، وفمى ينفخ ويقول « فو . فو . » من لسع النار التى فى خاصرة الحروف !

فبذمتى ليس هذا من الكرم فى شىء ! يجيئوننا أولاً بهذا الشاعر النجدى ينغص عيشنا ويشعرنا غصص الموت فى حياتنا بل فى

شبابنا - فقد كنا جميعاً شباناً في الحجاز حتى زكى باشا - ثم يثنون
بهذه الخراف التي حشوا بطونها جمرًا متقدداً ، ويزعمون أنهم
يطعموننا ويكرمونا ؟ ؟ لماذا اذن كانت ألوان الطعام الأخرى
لا تلسع ولا تحرق ؟ ؟ اليس من الواضح أن هذا تدبير مقصود ؟ ؟
ومال الأمير - بعد الطعام الى خيمته ليسترخ ، ومانا نحن الى
النخيل نحتمى في ذراه من الشمس ، وارتمينا على الرمال وأشعلنا
السجاير وذهبنا ندخن واذا بثلاثة من الجنود النجدية يحرون الينا
واحداً بعد الآخر - و يسألنا كل منهم بدوره
« معك شيء من العكس ؟ »

فلم أفهم ما العكس الذي يطلبون شيئاً منه . وحسبتهم يعنون
الدخان فأخرجت علبة السجاير وعرضتها عليهم فتناولوا منها
وعادوا يسألون عن « العكس » هل معنا منه شيء ؟ فقلت لعله
طعام أو شراب ، وأشارت الى خيمة المائدة وقلت
« هناك . لقد تركنا الخراف والله سليمة أو كالسليمة ، فعليكم
بها ان كنتم تعنونها والأمر لله . أما اذا كان شراباً ما تطلبون
فهذا هو الماء يجري عند اقدامكم فانكفئوا عليه وعبوا فيه واكرعوا
منه »

فمضوا عني وهم يبتسمون وكأنى كنت اخاطبهم باللغة
الأردية . وقد علمت بعد ذلك ان العكس معناه في اصطلاحهم

الصورة ، وكان الباعث لهم على طلب الصور منا ان رياض افندى شحاته أعد نحو ألف صورة - في حجم بطاقة البريد - لجلالة الملك ابن السعود وفرق أكثر ما معه في وادي فاطمة ، فتوهموا ان كل مصرى مصور ورياض افندى أيضا ! وليتنى كنته ! اذن لاستغنيت عن هذا الكتاب ولما أصبحت انجشم تعب التسطير والتجبير ونفقات الطبع والمشر .

تم عدنا الى خيمة الاجتماع وكانت غاصية ، ولم يكن الأمير قد حضر ، فطافوا علينا باقداح القهوة في قعورها رشفة ، فعدت الى الاجتماع وظلت استزيد حتى فر الساقى واختفى . ولما جاء الأمير استؤنفت الخطب ودعى زميلنا خير الدين افندى الزركلى الشاعر السورى فأنشد قصيدة حماسية هى كل ما خرجنا به فى يومنا - بل فى رحلتنا كلها - من الكلام الرصين الجيد . فنهض أحد السامعين من البدو . وقد طرب . رخلع عليه سبحة . وهم آحر أن يخلع عليه عباءة . ولكن اخوانه - أعنى اخوان الزركلى - خافوا اذا توالى الخلع ان ينوء بحملها فصدوا الناس عنه وحموه - هذا الا... أعنى الخير . وإنا كذلك واذا بزكى باشا بدخل كالمدفع ، وصوته يسبقه . ومن ورائه السيد عبد الوهاب نائب الحرم . فصفق له الناس فوقف يعتذر فقال كلاما أزعجنا ، ذلك انه التفت الى الأمير واطلق يقول إن أهل الحجاز وعمال الحكومة يزعمون أن الأمن شامل

ولكنه تبين أن هذا كذب ، ويرى من واجبه أن ينبه الأمير الى الحقيقة ويطلعه عليها ويصدقها فيها ، فقد كان مستلقياً في ظل النخيل فسطا عليه لص وسرقه .

وهنا وثب الناس الى أرجلهم ساخطين مستكرين . وقلت لجارى لقد خواط الرجل ! أما كان يستطيع ان يسكت ؟ الا بد من ان يعلن ذلك على هذه الأملاء كلها ؟

ووجئنا ، ووددت لو أنى تأخرت - وادركت زكى باشا قبل أن يدخل ، لأحملة على الصمت وأصده عن الكلام . غير أن ذهولنا لم يطل فقد اندفع زكى باشا يشرح الموضوع وإذا كل مايعنيه ان السيد عبد الوهاب يحدث ظريف وانه سرق وقته وأنساه الاجتماع والخطباء بحلاوة حديثه وقدرته على الافتنان فيه !

وقد عنيت بأن اذكر هذه الحادثة التافهة لأنى أريد أن أخص السيد عبد الوهاب بكلمة ، فانه بلا شك ابرع محدث وأظرف رجل عرفناه في الحجاز ، وقد تعلم في الآستانة واتقن التركية والفرنسية فضلاً عن لغته العربية . وعرف الأيام كما عرفها المتنبي ولكنه ظل مع ذلك رجلاً عطوفاً فيه رفق ورحمة ودمائة ومروءة . وليس في الحجاز من لا بأنس بمجلسه ويشتهى حديثه ، وهو على ظرفه وفكاهته كيس وقور ذو رأى انضجته السن والتجارب وفكر

سدده المعرفة والاطلاع . ولو شئت لأطالت ولكن بحسبه هذا
منى

واشير هنا الى حادثة أخرى لها دلالتها - ذلك ان عميد
وزراء الدول في الحجاز هو الوزير الرئيسى ، وقد كنت احسبه
صينيا فان به من أهل الصين مثابه ، وقد وقف يشكر للأمير
دعوته هو وزملائه الى هذه الوليمة فى الصحراء ، وكان يتكلم
بالعربية أو بما يظه لغة عربية ، ويرفع الشكر الى الأمير بالاصالة
عن نفسه وبالنيابة عن زملائه . ولم يطل فان من العسير أن يفيض
المرء فى الكلام بلغة بخرعها على البديهة .

ولكن ممثل الحكومة البريطانية - القائم بأعمال مفوضيتها
فى جدة - لم يرخصه أن يكون ممثل روسيا هو عميد الهيئة السياسية
والذى ينطق بلسان أعضائها مخافة أن يتوهم العرب ان الروسية
مقدمة على انجلترا ومفضلة عليها ، فاستأذن الأمير فى كلمة يلقيها
ثم نهض فاعرب هو أيضا عن شكره للاحفاوة التى لقيها والكرم
الذى غمره ، وقد اشرت من قبل الى هذه المنافسة بين الروسية
وانجلترا هناك ، والحنى انها كانت احيانا تبدو لنا مضحكة ، أو على
الأصح ممتعة .

واكل شئ آخر ، حتى الخطب والقصائد ، وقد تنفسنا الصعداء
حين رأينا الأمير ينهض وقلنا هذا إيدان بالأوبى الى جدة ، والراحة

ولكنهم خبأوا لنا مشهداً لا أحسبني أنساه ما خييت ، فقد ساروا بنا بين الجند النظامية الى العراء ، وهناك وقف الأمير واوماً اليها فدنونا منه ورأينا صفين من البدو النجديين ثيابهم شكول ، وأكثرها زاه براق ، وفي يسراهم البنادق وفي يمينهم السيوف مصلنة وبين الصفين أربعة بروحون ويحيئون وأمامهم عبد يضرب بالدف ، وهو يطول ويقصر ، ويتثنى ويتعوج ، ويميل يمناً ويسرة ويقوم ويرقد ويتمرغ على التراب ، والدف في يسراه ، وفي اليمين عصا صغيرة ينقر بها ، والأربعة وراءه يترنحون ، والصفان ، على الجانبين يتوثبان ، والمسدسات والبنادق ينطلق منها الرصاص في الهواء ، والسيوف تلعب ، ومع ذلك كله غناء او شدة أو تهزيج لا أدرى ، بكلام اعترف سمو الأمير نفسه أنه لا يتبين ألفاظه ، وقد اذكرني ما رأيت حلقات الذكر في مصر ، ولكن اذا كررنا في مصر يلهجون باسماء الله أمهاؤلاً فقيل لي ان الغرض من رقصهم بالسيوف والأسلحة والدفوف تحميس الناس ليخرجوا للقتال

قالوا ، ولا موجب لهذا التحميس ولكنها عادة بدوية قديمة مثلوها لنا ليمتعونا برؤيتها ، وكان الواحد من هؤلاء البدو ربما خلع عقاله و « حرامه » ورمى بهما في الهواء ورماهما برصاصة ونزكهما يهبطان الى الأرض ، وقيل لي في تفسير هذا ، أن

يخلع عليه الأمير جديدا عوضا عن القديم الذي اطلق فيه الرصاص
ويبقى العقال ملقى على الأرض حتى يقول له الأمير ارفعه عنها
وهذا عندهم وعد - غير قابل للاخلاف - بان يخلع
عليه سواد

وظللنا هكذا لا أدري كم ! وأحربنا أن لا نحس كر الوقت
ومر الساعات ونحن نرى هذا المنظر الساحر ونسمع الرصاص
ينطلق أمامنا وفوق رؤسنا . ولا أكتف القارىء أن الخوف لم
يفارقني لحظة . واني لم أذهل عن نفسي ثانية واحدة . واعترف
اني كنت أخشى أن يصيبني سوء - أعني رصاصة وأشهد لنفسي
بالآداب فقد كنت لا أزال كلما تنحى ممثل انجلترا ليفسح لي مكانا
الى جانبه في الصف الأول أوكد له اني أستطيع أن أرى من
تحت إبطه . واني لا أقبل في حال من الأحوال أن أحاذيه أو
أرفع نفسي الى مقامه . فكان يشكر لي تواضعي ويؤكد لي انه
سعيد بجيرتي . وأنه معجب بدلاقة لساني وقدرتي على الرطانة ،
فكنت أقول له

« ياسيدي الوزير ، اني عربي الأصل في الحقيقة ، وهذه
البلاد بلادى في الواقع ، فأنا لست هنا ضيفا ولا يجوز لابن البلاد
أن يسبق الضيف أو يتقدم عليه »
واتراجع خطوة . واجعله أمامي . واتخذ منه - بهذه الحيلة - مجنا

دون الرصاص الذى اتقى أن يصيبني ، وقد صارحته بالحقيقة ونحن راجعون وقلت له « إن انجلترا غنية بالرجال فهبك قتلت فان انجليزيا يروح وآخر يجيء ، وليس الذهاب بأفضل من الآتى ولكنه ليس فى مصر - ولا فى جزيرة العرب على ما يظهر - سوى مازنى واحد ، وهذا غريب ، فقد كنت أتوقع أن يخرج لاستقبالى والحفاوة بى وفد من عشيرتى ، ولكنى لم أسمع ان واحدا من بنى مازن انحدر الى الحجاز لهذا الغرض . وأسر اليك أنى أخشى ان يكون ابن السعود قد فتك بهم »

فدهش وقال لماذا ؟

فخفضت صوتى جدا ، وشببت عن الأرض لأهمس فى أذنه « ان قومي عفا الله عنهم - من أهل التخفيف » قال « ماذا تعنى ؟ فانى لأفهم »

قلت « اعنى انهم من ذوى المروءات ،

وقال « وهل يفتك بهم ابن السعود لأنهم من ذوى المروءات ؟ »

قلت « إن ابن السعود يكره هذا الضرب من المروءة » قال كيف ؟ لماذا ؟

« قلت ان اللغويين أعداء قومي - الد أعدائهم - يسمون

المروءة قطعاً للطريق ، والتخفيف عن الناس سطوا عليهم ، وابن السعود وهابى أى على مذهب اللغويين - سوء تعبير او خطأ فى

الوصف كما ترى ، واخشى ان يكون قد جر على قومي و بالالا
نهل لك في حلفي ؟ »

قال « حلفك ؟ »

قلت « نعم . تحالفني على ابن السعود . اذا ثبت انه
اوقع بهم . »

فالتفت الى بسرعة وقال « أتتكم جادا ؟ فليست اكتمك اني
مستغرب حديثك واني لا اكاد أفهم شيئاً ! »

وهنا أدركنا واحد فوضعت أصبعي على فمي ، وئسكن «الواحد»
لحني فقال للوزير

« أنا واثق أن حديث المازني قد حيرك »

فقال الوزير - أو القائم باعمال الوزير على الأصح - « هذا
صحيح . لقد كاد يجرني الى حرب ابن السعود ، من أجل قضية
لا أفهمها »

فقال « الواحد » - « الم أقل لك ؟ فماذا كان يقول ؟ »
فتركتهما يتذاكران وارتدت الى زملائي فصاحوا بي
« يا أخى أين كنت ؟ »

قلت « لماذا ؟ الست أمامكم ؟ »

قالوا « إن الأمير قد تفضل ودعانا الى خيمته ليودعنا على

« نفراد ، ولنا ربع ساعة نبحث عنك »

قلت « حسناً فعلتم . تفضلوا . »

وسرت أمامهم الى الخيمة ثم تنحيت لركى باشا فان شيبته
أضوا من شيبتي ، وأنا رجل لا يكابر فى الحق ، فتلقانا الأمير - ومعه
فؤاد بك حمزه مدير الشؤون الخارجية - بالتأهيل والترحيب ، وأعرب
عن سروره بزيارتنا للحجاز و يقينه انها ستؤدى الى توثيق العلاقة
بين الشعبين الشقيقين ،

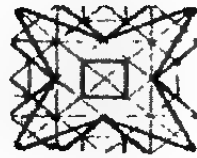
فقال زى باشا إن العادة تثبت من مرة واحدة فقال سموه انها
لكذلك ، وانى لأرجو أن اراكم فى كل عام على الأقل مرة .

وذكر بعضنا المدينة وانه يحب زيارتها ، فقال سموه إن الأمر
فى ذلك لكم ، فاذا شئتم أن تتخلفوا أياما أخرى فان الزيارة
سهلة ، ولكنها تكون شاقة ومتعبة اذا أردتم أن تدركوا الباخرة التى
تبارح جدة يوم السبت ، فاختاروا ماشئتم

فشكرنا له ظرفه وحسن مجاملته وكرمه واعتذرنا بان أعمالنا
فى مصر لا تسمح لنا بطول التغيب ، ورجونا أن تتاح لنا فى العام
المقبل فرصة العود الى مثل هذه الزيارة ، وأفضنا فى الاشادة بما
شاهدناه من دلائل التقدم وامارات الاخلاص فى ترقية الأحوال
وتحسين الشؤون وقلنا ، وقيل لنا كلام كثير نسيت أكثره ثم

تفضل سمو الأمير نخرج معنا من الخيمة ليرسمنا رياض افدى
حافين به .

ثم سلمنا وعدنا الى جدة . وكان هذا ختام الحفلات الرسمية



في بيت العوينى

في بيت العوينى ، عرفت العوينى ، أعنى أنى استطعت أن ألم بطرف من الصفات والخلال التى أعانته على التوفيق فى حياته ، وهو على ما علمت من أسرة سورية وكانت له تجارة رابحة ، فلما قامت الثورة السورية أمدّها بشبابه وماله وتديره ، وكان أشبه بزعيم محلى ، فقبض على طائفة من رجاله ، قال محدثى - والعهد فى الرواية عليه - فأصبح يوماً فاذا نساء الحى يصرخن ويولولون ويندبن ويصحن « يخرّب بيتك يا عوينى »

نخيف أن يفضى ذلك الى اعتقال الباقيين والى احباط التدبير كله ، فتولى العوينى الانفاق على السجناء وعلى أهليهم الطلقاء - أمهاتهم وزوجاتهم وأخوانهم الخ وأحكم أمره وسارت الأمور على خير ما يرجى فى مثل هذه الأحوال ، وكانت الأسرات التى اضطرت أن يعولها كثيرة وفقيرة ، فأرهقته واستنزفت موارده فلم يسعه الا أن يصنّى تجارته - أو ما بقى منها - وأن يرحل

فقصد الى الآستانة وفى مأموله أن يبدأ حياته من جديد

ومكث هناك شهوراً ثم انفق نفسه ينفق ولا يرجح فاحتمل حقائبه
ومضى الى جدة وأنشأ فيها وكالة لتاجر سورى كبير ، وظل
كذلك ثلاث سنوات حتى استطاع أن يقف على قدميه وأن
ينشئ لنفسه تجارة مستقلة .

وهو يستورد المتاجر بالجملة ويفرقها على التجار فاذا جاء يوم الجمعة
أنقدوه اثمان ما باعهم ، وقد اخبرني محدثي - ولى به ثقة - أن
متوسط ما يجمعه من التجار في كل يوم جمعة يبلغ أربعة آلاف
جنيه ، لا أدري كم يكون ربحه منها ، وقد ذكرت ذلك لأعين القارىء
على تصور مبلغ النجاح الذى أحرزه والذى يستحق أضعافه ،
لنشاطه ودؤوبه وكده ، وقد كنا نفتتح عيوننا فى الصباح وتثائب
ونتمطى على حين يكون هو قد لبس بذلته (الافرنجية) ولا
ينقصه الا أن يضع على رأسه الحرام الحريرى الأبيض ، والعقال
ولولا وجودنا وكوننا ضيوفه لكان قد خرج الى عمله قبل ذلك
بساعات ، ولكنه كان مضطراً أن يتأخر حتى يفطر معنا ، وكنت
أعجب بلباقته وكياسته وحذقه فى حشنا على النهوض والافطار
من غير أن يشعرنا أنه قلق على عمله وأنه يريد أن يخرج
ليباشره ،

وكان العوينى يبدو لنا كأنه كل شئ : الحكومة والرعية
جميعاً . فهو الذى يعهدون اليه فى تنظيم كل أمر ويكون اليه

الإشراف عليه ، ويعتدونه مسئولاً عنه فما احتجنا إلى شيء إلا قلنا
أين العويني ؟ ولا أرادت الحكومة شيئاً إلا قالت : هاتوا العويني ،
ولا ناقة له في ذلك كله ولا جمل ، ولكنه النشاط وحسن التدبير
والسرعة الرائعة في إنجاز الأمور وحضور الذهن واتقاد الخاطر
وكان يساكنه شاب آخر في مثل سنه أو أقل - بل هو
أصغر على التحقيق - اسمه إبراهيم أفندي شاكر حسبناه أول
الأمر أخاء ثم عرفناه أنه صديقه ووكيله ، وهو حجازي صميم
كان سكرتيراً خاصاً للملك السابق علي بن الحسين ، وإبراهيم أفندي
كصاحبه العويني في النشاط والرقعة ، ولكنه ساكن وادع الطائر
طويل الصمت ، يمر بك كالنسيم الوافي ، والنظرة إلى وجهه تنعش
الروح وتحيي النفس ، والجلوس معه يشيع في صدرك الطمأنينة
والاحساس بالراحة التامة ، وهو مع سكونه دائم الحركة لا يكمل
ولا يمل ولا يتأفف ولا يكون إلا مفتر الثغر .

وفي بيت العويني أيضاً كان من حظي أن عرفت خالد بك
الحكيم . وكان يلبس جبة وقفطاناً ، وعلى رأسه الحرام والعقال ،
وهو رجل ضخم عليه مهابة ووقار ، وفي عينه التماع عجيب ولحيته
سحر ، وهو سوري من كبار المجاهدين ، تخرج في المدرسة الحربية
في الآستانة وخاض حروباً شتى في أوروبا وآسيا وأفريقية -
طرابلس - وكان مع جيش ابن السعود الذي فتح الحجاز ،

ويسمونه « الغطاس » لأنه يكون اليوم معك وتفرقان على ان تلتقيا غدا ، واذا به غدا في الشام أو اليمن أو بمباي ، ولا يدرى سواه اى طريق سلك ، ولا علم لأحد بما كان ينوى ، وهو بكل بلد اعرف من أهله وأنفذ بصيرة في حاضره ومستقبله ، والعشرة من أمثاله يعادلون أمة ، ولقد لقيته بعد ذلك في مصر فما ازددت الا اكباراً له وإيماناً به ، إكباراً لقوته الصامته وجلده على الحياة وتواضعه المحبب وإخلاصه وصراحته ، وإيماناً بعظمة روحه

٠ ٠ ٠

وفي بيت العوينى جاءتنا هدايا الأمير ، وكان صديق لنا قد أسر الى اننا سنتلقى هدية فسألته عنها أى شئ هي ؟ قال عبادة وعقال وما الى ذلك . فقلت اذا كانت هذه هي الهدية فمرحباً بها وليعجلوا ، فسألنى « واذا كان هناك غيرها ؟ » قلت « ماذا تعنى ؟ »

قال « اعنى ان من عادة العرب اذا حل بهم ضيف أن يهدوا ويهبوا ويصلوا »

قلت « ان من المعقول ان تكون هذه عادتهم . فان البدوى في الحقيقة فقير معدم ، وطلبته الطعام والكسوة والمال ، فطبيعى أن يكرم العرب الضيف أى أن يطعموه ويكسوه ويصلوه . ولكننا لسنا بدوا - وانى لأشتهى ان تكون لى عبادة وعقال ،

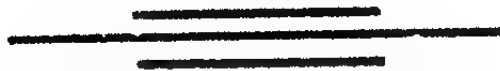
والكن هذا ليس لأنى عار مفتقر الى الكسوة بل لأنى أعتد هذه الثياب قنية
تستحق أن تدخر ، أما الصلة اى المال فبالله عليك الا ما صرفتهم عنه ،
لئلا يخرجونا ويخرجوا أنفسهم . فانى لا أَرْضى أن آخذ ما لا أستحقه
ثم انى استحي أن أرد عطاء أمير ، ولكنى سأكون مضطرا أن أردده لأنه
لا يسعنى الا أن أعدده فى مثل هذا الموقف رشوة أربأ بنفسى وبالحكومة
السعودية عنها ، وقد بالغت الحكومة فى إكرامنا وانفقت على
رحلتنا هذه بضعة آلاف من الجنيهات ودفعت لنا حتى أجور
التلغرافات التى بعثنا بها الى صحفنا ، وهذا كله فوق الكفاية ، ثم إن
ما شاهدناه كان له وقع جميل فى نفوسنا فلا يفسدوا هذا الوقع
بالرشوة . وأنا مقترح عليك بديلا منها : فانى أشتهى بلع المدينة ،
المشهور ، فاذا كان يسعهم أن يخاطبوا المدينة بالتلفون لترسل اليها فى
ينبع قليلا من البلع ، فان هذا يكون خيرا من كل مال . »

وقد استشار صاحبى زميلا آخر لى فنصح له بمثل ذلك ، فعاد
اليهم صاحبنا وحملهم على الامتناع عن وصلنا بالمال ، وعلى الاكتفاء
بالكسوة العربية والبلع - والكسوة عبارة عن معطف مصنوع من
الكشمير وعباءة سميكة من الصوف الجيد محلاة ومزركشة بما
لا أدري وعقال من الحرير مفضض وحرام من الكشمير ،
وقطعة من السكرودة . وقد احتجت ان أقصر هذه الثياب لأستطيع
لبسها والارتفاع بها

وفي ينبع ونحن عائدون ابى الأمير الا أن يستقبلنا كأنا كنا مثله .
امراء - فى سرادق عظيم القيت فيه الخطب وأنشدت القصائد ،
ثم تغدينا واكلنا خرافا حقيقية لاشك فيها ولا فى رؤوسها ولا فى
امخاخها ، وبلغ من حفاوتهم بنا أن كان كبار القوم هم الذين يتولون
خدمتنا على الطعام .

ثم عدنا الى الباخرة حيث وجدنا باح المدينة فى « صفائح »
بعددنا ، بل باكثر من عددنا ، ففرقنا ما زاد واحتفظنا بانصبتنا ،
ورسونا فى الطور ساعات وطفنا به وشاهدنا ما فيه من البنى والمعدات
الوافية ، ثم عدنا بسلامة الله .

ولكن رحلتنا ونحن عائدون كانت فاترة فقد كان ينقصنا نبيه بك
العظمة وخير الدين افندى الزركلى . فقد تخلفا فى جدة



خاتمة

العرب أمتان في أمة ، أو هم على الأصح ثلاث أمم : واحدة تعيش في الحواضر على نحو ماتعيش أمثالها في كل بلاد العالم وهذه خايط من شعوب شتى ، فيها المصرى والسورى والفارسى والهندي والجاوى الخ ، وقد لقيت في جدة ومكة كثيرين من التجار والأعيان علمت منهم أن أصولهم مصرية وأن لبعضهم في مصر أقارب ومصالح وأملاك ، وحدثني كبير في الحكومة السعودية أنه عني بالبحث والتنقيب عن أجناس الأهالي فعرف نحو مائتي أسرة مصرية استوطنت الحجاز واستقرت فيه من زمن بعيد أو قريب ، ولكن الشبان المصريين هناك قليلون ، وهم في حكومة الحجاز يعدون على الأصابع ، ولهذا عدة أسباب منها أن السوريين ، وهم أقرب الى بلاد العرب وأوثق بها صلة - زاحموهم فغلبوهم ، وللسوريين آمال قومية يعتمدون في تحقيقها - في جملة ما يعتمدون عليه - على السعوديين ، وقد انتفع السعوديون بالمهندسين والضباط وغيرهم ممن تلقوا علومهم في معاهد الآستانة

وشردتهم عن سوريا الأحوال السياسية . ودفعت بهم مساعيهم
القومية الى الصحراء ، وبين السوريين من ليسوا من الأوساط
العبادية ، وإنما هم من ذوى انصلاية وأولى العزم والقوة فلا بدع
إذا غلبوا المصريين القليلين الذين ذهبوا في السنوات الأخيرة فلم
يجدوا ما كانوا يأملون من الغنى السريع أو الرزق الوافر أو غير
ذلك فعاد أكثرهم . ومصر أرقى حضارة من سورية ، والترف
فيها أوفر والحياة فيها أنعم . ولهذا كان السوري لا يحس في الحجاز انه
نزل عن شيء من مظاهر حياته على خلاف المصرى الذى لا يجد
هناك ما خلفه في وطنه من المتاعم والملاهى ، على انى لست في
مقام التقصى للأسباب التى أدت الى ضعف العنصر المصرى في
الحكومة الحجازية وإنما أردت بما ذكرت أن إبين ان لهذا اسبابا
معقولة . والأمة الثانية : القبائل المقيمة على المياه الثابتة وهذه
تشتغل بالزراعة الى حـد ما ، وبالرعى وبقليل من الصناعات
السادجة ، ومواطن هذه القبائل ثابتة . ومحلاتها وعشائرها وبطونها
وأفخاذها تكاد تكون مضبوطة الحدود على العموم - ومرتب هذه
نخرج امة ثالثة هم البدو الرحل الذين لا يستقرون في مكان ولا
بزالون يتحولون من هنا الى هناك

وقد أدرك ابن السعود بفطرته الزكية ان هذه البداوة هى آفة
الأمة العربية وعلمته التجارب ان البدو لا خير فيهم في حرب ولا في سلم .

فهم في الحرب لا يكادون يبصرون الجمال النافرة من قعقة السلاح أو صوت الرصاص حتى ينفضوا أيديهم من القتال ويذهبوا يعدون وراء الجمال وما إليها ليغنموها ، ومن أجل هذا كان يعتمد في حروبه على الجنود النظاميين المدربين لا على البدو . وكان يقدم البدو في المعارك ويضع جيشه النظامي وراءهم ليمنع البدو أن يفروا وراء المغانم والأسلاب قبل أن تنتهى المعركة . أما في السلم فهم عائلة عليه وعلى حكومته لأنهم لا يحسنون صناعة أو زراعة . وما دام للواحد منهم راحلة فهو ينطلق بها الى حيث تنازعه نفسه ولا يطيق أن يستقر في مكان . ولهذا فكر في تحضيرهم واخراجهم من هذه البداوة فاتقى لهم المواقع التي يكون فيها الماء وحفر لهم الآبار وأوسعها أو أصلحها وألزمهم أن يبيعوا خيلهم أو جمالهم وأن يشتغلوا بالزراعة والصناعة ليتسنى له ان يجعل منهم أمة وأن ينظم أمورهم وان يقيم الحكم فيهم على قواعده الصحيحة وان يعلمهم ويشقفهم . وتسمى هذه المواقع التي اختارها لهم وألزمهم الإقامة بها والعمل فيها « الهجر » بضم الهاء وفتح الجيم جمع هجرة ، وذلك أعظم عمل يباشره وأجل مهمة يزاولها

وعلى هذا النحو العملى بحل ابن السعود مشاكله العديدة ، فالحجاز مثلاً - على حضارته نسيباً - صحراء جرداء ، والماء اكبر ما

يحتاج اليه وأول ما ينقصه ، وقد كانت فيه آبار وعيون كثيرة هدمها الأتراك وخربها الأشراف - كل بدوره - وكانت قرب جدة بئر الوزيرية وهذه وحدها كانت تكفي جده ، وقد ذهبت معالمها ودرست آثارها ولذلك جاءت الحكومة لينبع وجدة بآلات لتقطير مياه البحر واشترت أخيراً آلة كهذه لجدة تقطر في اليوم مائة وخمسين طناً من الماء ، وأصلحت الصهاريج التي تُخزن بها مياه الأمطار ، ومضت تجدد الآبار الدارسة وتكشف عن العيون التي سددت أو خربت ووجدت أن الآبار قليلة الغناء لأنها تُجف وتنشف في بعض الفصول فأنخذت الآبار الارتوازية وجلبت الآلات لاستنباط الماء من جوف الأرض ، وبما يذكر في هذا الصدد أنها استدعت اثنين من المهندسين المصريين لاختيار المواقع التي يحسن اتخاذ الآبار الارتوازية فيها . غير أن معداتها لم تكن كافية ، فعاد ، وقد أوصت الحكومة السعودية باستدعاء اثنين من المهندسين الغربيين والمرجح أن يكون اختيارهما من لهم خبرة بالجزائر لتشابه طبيعة البلدين ، وعملت الحكومة على إصلاح عين زيدة بإنشاء خزان ومد أنابيب ، وهي تبني خزاناً كبيراً آخر لجمع مياه المطر يسع مائة ألف طن ، وموقعه لا يتطلب نفقات كبيرة لأنها اختارته في مكان تحيط به الجبال من ثلاث جهات فالحاجة

لاتدعو الى البناء الا من ناحية واحدة

ومن أجل الماء تعفى الحكومة كل الآلات التي تتخذ لاستنباطه من الرسوم الجمركية . وكذلك آلات الزراعة . بل هي تقسط أثمانها على الأهالي تشجيعا ومعاونة لهم . ومن أجل الماء تعنى بالتعليم الهندسى ، ولذلك ارسلت الى الآستانة طالبا يتعلم الهندسة ، وبعثت الى برلين بآخر . والحجاز كمصر ينبغى أن يكون بلاد الهندسة والمهندسين البارعين .

ولما كانت البلاد صحراء والمسافات فيها طويلة ، فقد اتخذت الحكومة السيارات وشجعت على اقتنائها وقد دخل السعوديون الحجاز وليس فيه سوى سيارة واحدة يملكها الملك ، حسين السابق ، وفي الحجاز الآن ألف سيارة ومائتان . والبريد ينقل بين جدة ومكة ، وبين جدة والمدينة على السيارات مرتين فى اليوم . والشرطة يتخذونها للمرور والعسس ، والجند كذلك للانتقال والحمل . وقد بدأ استعمال السيارات بين الحجاز ونجد . ولا بد لذلك كله من الأمن والافسد الأمر كله . ومن هنا قسا ابن السعود فى أول الأمر فصار يقطع يد السارق فازدجر اللصوص وقطاع الطرق . وأدب العشائر التي تسطو على الحجاج ، فساد الأمن وصار مضرب الأمثال بلا أقل مبالغة . وقد رأيت بعينى رأسى شواهد رائعة وأدلة مدهشة

ومن أجل طول المسافات وتقاذف الأبعاد اتخذت الطيارات واللاسلكى فضلا عن التلغراف السلكى المعتاد، ولللاسلكى الآن أربعة عشر مركزا . وقد انشأت الحكومة مركزا جديدا فى جزيرة دارين . وهم ينشئون شبكة لاسلكية لها ثلاثة عشر مركزا ثابتا للتلغراف والتليفون اللاسلكى وذلك لوصول الرياض ومكة والمدينة وكل مركز فى الأولوية والأفضية

ولم يتخذوا القطر البخارية لأن تكاليفها باهظة لاتقوى عليها الميزانية . ولأنهم من ناحية أخرى يحرصون على أن لا يقطعوا أرزاق الجمالة . على أنهم فكروا فى انشاء خط كهربائى بين جدة ومكة وأصلحوا الطرق وعبدوها وكبسوها بواسطة « وابور الزلط » كما نسميه فى مصر

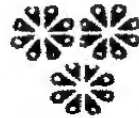
ومن أجل الحج واتقاء لتفشى الأمراض انشأوا فى مكة مستشفى يسع مائتى مريض وجعلوا فيه أقساما للجراحة والأمراض الباطنية وغير ذلك ، ولهم الآن عشرون طبيا حجازيا . وأقاموا محطة للحجاج فى بحرة بين جدة ومكة وفيها مستشفى ، فضلا عن المحطات الأخرى للراحة . وأصلحوا الكرنتينة ورتبوا دوريات صحية وبنوا المظلات فى عرفات ومنى وجهزوها بالماء والثلج وأقاموا فى كل منها طبيا وممرضا . والحكومة تلتحق الناس ضد الجدرى . وقد انشأت

معملا للحصول على مصول الجدرى والكوليرا والتيفوئيد. وأرسلت بعثات طبية للخارج . واستعارت طبيبا هولنديا وبدأت توسع مستشفى جدة

وقد حققنا بمصلى الكوليرا والتيفوئيد قبل سفرنا من السويس، ولكن هذه الأمراض لا أثر لها هناك . على الأقل في هذه الأيام. وعلى أن مصلحة الصحة المصرية تعلن منذ سنوات ان الحج نظيف. أما من حيث التعليم فللحجاز بعثة في مصر مؤلفة من خمسة وعشرين تلميذا وطالبا فضلا عن البعثات الهندسية والطبية التي أشرنا اليها . وقد انشأت الحكومة مدارس أولية وابتدائية في جدة ومكة والمدينة وينبع وغيرها ومدرستين ثانويتين في مكة وأخرى في المدينة . ورابعة في جدة . وهذا غير المعهد السعودي في مكة وغير مدرسة المطوفين التي أنشأتها - كما أنشأنا في مصر مدرسة الأدلاء والتراجمة ، وغير المدارس الدينية التي لاتعد مدارس حديثة

وبهذه الطريقة العملية يحل ابن السعود مشا كل بلاده ، ويعالج ترقيتها وقد تبدو الخطى قصيرة ولكنها مناسبة لحالة البلاد وتعداد أهلها . والمال هو العقبة الكبرى ولكن الحكومة لاتتعجل ولا تذهب الى إثقال كاهل الناس بالضرائب من أجل ذلك ، وشعارها ، أن: العجلة من الشيطان . ولكن، خطاها وطدة

مستمرة . كخطى السلحفاة التى سبقت الأرنب ، والأرنب عندى هو مصر . ولقد عدت من الحجاز وأنا مقتنع بأن مصر إذا ظلت تتخبط وتولى الشؤون السياسية هذا الحظ الباهظ من عنايتها على حساب المرافق الجدية والمرشد الحيوية . فسيسبقها الحجاز بلا أدنى ريب .



مطبعة فؤاد

بشارع عبد الحق السباطى رقم ٢٠
بميدان الأوبرا

مستعدة لطبع الكتب وأشغال التجار
والمحامين والدوائر بأثمان لا تجارى وأسعار
لا تبارى مع صدق الميعاد واتقان الطبع
ونظافته